



المدينة المنيرة

قصة رمزية

تأليف

إيفلين جرات

عربت عن الإنجليزية

بقلم

ليديا متري حنا

(طبعة ثانية)

صدرت عن جمعية المعارف المسيحية

المدينة المنيرة

الطبعة الأولى	-	نوفمبر	سنة ١٩١١
الطبعة الثانية	-	اغسطس	سنة ١٩١٣
الطبعة الثالثة	-	مايو	سنة ١٩٢٢
الطبعة الرابعة	-	يناير	سنة ١٩٢٣ (طبعة فاخرة)
الطبعة الخامسة	-	اكتوبر	سنة ١٩٢٤ (مصورة)
الطبعة السادسة	-		سنة ١٩٢٦ (باللغة اليابانية)
الطبعة السابعة	-		سنة ١٩٢٩ (باللغة الفارسية)
الطبعة الثامنة	-		سنة ١٩٣٠ (باللغة السويدية)
الطبعة التاسعة	-		سنة ١٩٣٢ (باللغة السويدية)
الطبعة العاشرة	-		سنة ١٩٣٦ (باللغة الفارسية)
الطبعة الحادية عشر	-		سنة ١٩٣٦
الطبعة الثانية عشر	-		سنة ١٩٣٨ (باللغة العربية)

والناشرون يشكرون إدارة ابسوتش (Ipswish) بانجلترا للسماح لهم

بنقل هذه القصة الى اللغة العربية.

طبع في مطبعة النيل المسيحية

إهداء الكتاب

ان أول نظرة الى هذا الكتاب تذكر القارئ بكتاب "سياحة المسيحي" الذي فحجت المؤلفة منهجه وإتبعته أسلوبه. ولا يزال كتاب "سياحة المسيحي" بين الكتب الفذة الشهيرة مع أنه قد مرّ على تأليفه نحو قرنين ونصف. على أن الكاتبة الحديثة مع نسجها على منوال ذلك قد صاغت كتابها بإسلوب يدل على خبرة روحية بحاجات أهل هذا العصر وبالأخطار الروحية التي يتعرضون لها. وهي تصف لهم الأسلحة التي يستطيعون أن يلاقوا بها العدو، وهي التي إستعملها "المسيحي" و"الأمين".

أما أبطال القصة فقد أجادت المؤلفة في وصفهم. كما ان الأخطار التي تعرض للسائح الى المدينة المنيرة معلومة لدي ضمير كل قارئ. ومن مميزات الكتاب الثمينة الإشارة الى "الدليل" (أي الكتاب المقدس) وفيه من الفوائد والنصائح ما ينبغي اسداؤه للأحداث، كما ان الكبار في السن يجدون فيه كثيراً من الدروس المفيدة.

وان مترجمة هذا الكتاب تقدمه لقراء العربية طالبة من الله أن يجعله آله لربح النفوس وهداية الضالين وايقاظ الغافلين وانماء المؤمنين في الحياة الروحية.

فهرس

- الوليمة	الفصل الأول
- الصوت	الفصل الثاني
- سمة الملك	الفصل الثالث
- تقلد السلاح	الفصل الرابع
- أعداء الطريق	الفصل الخامس
- حرب الكتاب	الفصل السادس
- البلاد الخلابة	الفصل السابع
- الضلال عن السبيل	الفصل الثامن
- معركة عنيفة	الفصل التاسع
- عبور هيمان	الفصل العاشر
- الغابة المظلمة	الفصل الحادي عشر
- ارتفاع خطير	الفصل الثاني عشر
- الصليب في الوادي	الفصل الثالث عشر
- بلاد الإهمال	الفصل الرابع عشر
- المرمنون	الفصل الخامس عشر
- ضفة النهر	الفصل السادس عشر
- الى أن يجيئ	الفصل السابع عشر

الفصل الأول

الوليمة

خيم الظلام على بيوتن (المدينة المظلمة)، وأُيرت شوارعها المزدحمة بالناس بأنوار ضئيلة أَلقت حولها أشباحاً قائمة زادت المكان روعاً. وكانت هيئة المارة الكئيبة تدلّ علي غير ما دل عليه صوت الطرب الخارج من بعض البيوت. - فانه لاحت علي وجوه بعضهم علامات القنوط. كأن نور الشمس لم يصل الى نفوسهم قط. وعلى وجوه آخرين علامات حزم شديد لم تفارقهم على الرغم من استهزاء الجماهير وتعييرهم. - إذ كان بين المارة أيضاً قوم لم يشعروا بالظلام أو شعروا به ولم يكتشروا. بل ساروا في طريقهم متحدثين بفرح، منهمكين في أشغالهم وملذاتهم.

وفي أحد شوارع المدينة الرئيسية كنت تسمع صوت الموسيقى والمرح خارجاً من نوافذ أحد الأبنية الكبيرة. ومن بعض أبوابها المفتوحة كنت ترى جماعة جالسين حول مائدة مزدانة بالأواني الفضية والزجاجية المتألقة وعليها جميع أنواع الأطياب.

والى صدر تلك المائدة جلس شاب بدت علي وجهه ملامح لم تتفق قط مع المحيط البهج حوله، ولا مع كلمات الفرحة الخارجة من فيه، التي كان سامعوها يضحكون لها طرباً، مما دلّ علي أن الشاب عزيز لديهم. وكان في حديثه شئ من الجرأة جعل المتقدمين في السن يهزون رؤوسهم كأنهم غير موافقين عليه تماماً، وكان الشبان يهتفون استحساناً له.

وهمس أحد الضيوف في أذن جاره قائلاً أن عمران غير قابل للإصلاح ولا شك في أنه سيزداد غطرسةً، لاسيما وهو علي وشك الحصول على ثروة هائلة.

أجاب صديقه: لا بأس من ذلك فانه طيب القلب كريم، واثق بأنه سيشارك أصدقاءه في ثروته. وفوق هذا فهو ذو شخصية جذابة.

الأول: إنني لا أفهم حقيقة هذا الإنسان فان ملامحه تكذب كلامه، فإذا أصغيت إلى حديثه ظننت أنه أسعد مخلوق حيّ، بينما عيناه تحدثان حديثاً آخر. الثاني: تنهد ذلك عميقاً وقال: وهل يوجد في هذا المكان المظلم من هو سعيد حقاً؟ لا، بل كل ما نراه غرور ومرارة نفس.

الأول: دع عنك التشاؤم وأنظر فان مضيفنا يطلب السكوت كي يلقي علينا خطبة، ولا أخال نفسي مخطئاً لو قلت انه أخذ يستعد لها منذ بلوغه سن الرشد، أصغ إلى ما يقوله.

أما كلمات الشاب الافتتاحية فأغرقت في صوت الهتاف المستمر ورنّة الكؤوس، فأضطر الى الانتظار ريثما أصغوا إليه. ولما انتهى من الخطابة ظهرت علامات الفشل علي وجوه بعض السامعين، كأنهم كانوا ينتظرون منه ما هو أبلغ من ذلك، وقد دلت ملامحه علي أنه لم يكن مطمئناً أثناء الكلام، فإنه توقف مراراً عديدة، وكانت في عينيه نظرة بعيدة كمن يصغي الى صوت يدعوه، وأظهر صعوبة في حصر أفكاره، ومع ذلك فإنه ختم كلامه بالمرح.

وعندئذ سُمع صوت بوق عال فساد الجميع سكوت عميق لحظة من الزمن ثم قال أحدهم: هوذا النذير مرّة أخرى.

وقال آخر متذمراً: ليته يدعنا وشأننا، ما له ولنا؟

وقال ثالث: انه يستطيع أن يلقي كدرأً علي أهج الولايم.

أجاب الأول: انك محق في كلامك، ففي احدي الليالي الماضية لم أستطع النوم أبداً لتفكيري في نبواته عن مدينتنا بيونن، فهو يقضي علي كل من يتبقي فيها بالموت.

فقال عمران: لكننا لسنا مضطرين الى تصديق كل مجنون يهذي،
فهلّموا بنا لسماعه وللترويح عن بالنا بالاستفهام منه عن حقيقة تعاليمه.
أجاب أحد أصدقائه: يا للعجب يا عمران! كدت أظنك نصف مؤمن
بالرجل.

ثم قاموا وخرجوا الى ساحة السوق حيث كان النذير ينادي: "اخرجوا
من وسطهم واعتزلوا يقول الرب".

اخترق عمران الصفوف ووقف في مقدمة الجمهور متغلباً علي شعوره
كعادته، وكان أتباعه يحيطون به. وجعلوا جميعهم دفعه واحده يسألون النذير
مستفهمين منه بتهكم وضحك، وكان الأحداث من الحضور يشاركونهم
ويشجعونهم علي ذلك.

أما النذير فكان يجيب عن بعض أسئلتهم بطول أناة وسكينه ويتغاضي
عن البعض الآخر ناظراً إليهم بعطف وعلامات الحزن العميق بادية علي
وجهه. ولما رأى أن آداب الجمهور فسدت بتأثير هؤلاء الشبان الفضوليين
تحول عنهم بهدوء وهو يقول بصوت خاشع رنان: "اخرجوا من وسطهم
واعتزلوا يقول الرب".

تفرقت الجموع بعد ذلك، وودع عمران أصدقاءه وهم يضحكون
ويشنون عليه لنجاح وليمته، ثم تركوه وحده في طريقه الى بيته ومضوا.
"اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب".

رنت هذه الكلمات في أذني الفتي فنسي أصدقاءه ووليمته وأفراحها،
وصار لا يفكر إلا فيها وفي هيئة وجه النذير الدالة علي اللطف والشدة معاً،
وجعل يقول في نفسه: هوذا الصوت مرّة أخرى، كنت ظننت أنه أخذ، لكنني
لن أصغي إليه.

علي أن الكلمات لم تبرح من ذهنه وكان قد سمعها الأمس من النذير الذي كان يحدّق فيه بعينين ساحرتين. وقد ظن عمران أن تلك الوليمة التي أقامها تذكّار لبلوغه سنّ الرشد تنسيه إياها. لكنه سمعها ثانية وهو يلقي خطبته التي أعدها باهتمام شديد، فتلعثم لسانه ونسي ما كان عازماً علي قوله. وكان الصوت ملحاً.

وفيما هو يفكّر في هذه الأمور فاجأه منظر جميل، وذلك أن فتاة بلباس أبيض، كانت واقفة في باب حديقة أحد البيوت التي علي الشارع، ركضت نحوه بيدين مبسوطتين ووجه باسم وقالت: هل نجحت وليمتك يا عمران وهل كان اليوم يوم سرور لكم.

نسي عمران الصوت لحظة عند رؤيته عيني الفتاة الجميلتين ولمسه يديها، وجعل يخبرها بحماس عن الكلام المشجع الذي قاله له أصدقائه، وعن مقدار سرورهم بالوليمة. ولكن لما سألته عن خطبته، صمت بضع ثوان مرتبكاً بعض الارتباك ثم قال: كلا إنني لم أنجح مقدار ما أملت، بل ترددت كثيراً في الإلقاء فلم يكن تأثير لأقوالي.

— ولماذا ذاك يا عمران، فانك عند تلاوة خطبك عليّ لم تتردد قط، فما الذي جري لك؟

— سأطلعك علي السبب يوماً آخر، ربما غدا.

عبست "غابريلا" لجوابه في بداية الأمر، لكنها نست كدرها حالاً، وتابعا السير نحو البيت يداً بيد.

سارا وأشرقت عيني الفتاة كالنجوم في الظلام، وكانت ابتسامتها لعمران الذي أحبها بكل قلبه أهبج من شعاع الشمس، وفرح جداً بوجودها معه، فنسي الهواجس التي كانت تزعجه حتى في وسط أفراحه. وجعل

يتحدثان عن أمور اليوم عن المشروع الذي كان مزمعاً أن يدخل شريكاً فيه
الغد، والذي إذا نجح يُمكنهما من تعيين اليوم الذي فيه تتكلم محبتهما بالقران
السعيد. وأخيراً افترقا وهو يردد قائلاً: الى اللقاء يا غابريلا، الى اللقاء غداً.

الفصل الثاني

الصوت

دخل "أنطوني هوشل" الى الغرفة حيث كانت امرأته، وجلس في كرسي كبير بجانب النار، ثم صفق كفيه علي ركبته بغضب وقال: إن ولدنا لمجنون فلقد قلب النذير دماغه.

فالتفت إليه امرأته وسألت باهتمام وما الذي جري؟

أجابها بجدة: أتسألين ما الذي جري؟ ها هو يرفض بتاتا الاشتراك في الأعمال التجارية التي ابتعتها له، ويقول أنه عازم علي السفر الى المدينة المنيرة "وأنعم بها من مدينة منيرة!" أفلا نعلم كلنا أن النذير ليس بنبي حقيقي، وأنه ليست هنالك مدينة كهذه، وليس من يعتقد بها الآن.

فقلت امرأته: إن هذا الوهم وقتي في رأسه وسيزول منه قريباً، ولقد أخبرني شيئاً عن هذا الأمر بالأمر فلم أهتم له بل أشرت عليه أن يدع الهذيان عنه بأسرع ما يمكن. أما الفتى يا أنطوني فلا يرتدع بالقوة بل بالبرهان، وهذا طبعه منذ الطفولة، فلا نقدر علي ردعه إلا بالإقناع.

الأب: نعم، هو عنيذ منذ حدثته، ولا يعمل إلا ما يخطر له. ولكنه في هذا الأمر قد تجاوز الحد في عناده ولاسيما بعد العناء الذي قاسيته لتركيزه في عمل قد يتمكن بواسطته من الحصول علي ثروة طائلة.

الأم: وهل هو مرتاب في نوع العمل؟

الأب: ليس هو مرتاباً فحسب، بل لا يرضي أن تكون له أقل علاقة به ويقول أنه لا يريد أن يتغني بقتل نفوس غيره وما أشبه من الكلام التافه. وفوق ذلك فهو يعتزم السفر نحو المدينة المنيرة في الحال.

فتبسمت الأم وقالت: أنه لن يفعل ذلك ولن يترك غابريلا لأنه متعلق
بها قلباً ونفساً، وهي تحب بيونن محبة عظيمة، ولا يمكن أن ترافقه في هذه
السفرة المملوءة بالمجازفة. فلا تخف يا أنطوني إذ لا شيء يحمله علي تركها.
الأب: إنها ستذهب معه، فالمرأة تنقاد حالاً للرجل الذي تحبه.
وسأذكرك بكلامي هذا.

الأم: إن غابريلا تهتم جداً لراحتها وملذات الحياة فلا تتركها حتى من
أجل عمران. وقد لاحظت في ظروف كثيرة أنها تفضل نفسها عليه، فيستحيل
أن تخاطر بذاتها من أجله. فإن لم ينثن عن عزمه، سيضطر الى الذهاب وحده
وسيجد ذلك صعباً جداً. أما أنا فلا أظنه يذهب.

فقام الأب متعزياً بعض التعزية بكلامها، وانطلق للتفتيش عن ابنه آملاً
أن يقنعه بالبراهين القوية علي تغيير فكره قبل فوات الفرصة.

أما امرأته فطرحت شغلها علي حضانها، وقد شخصت بنظرها الى
السماء. وكانت إمارات الحزن البادية علي وجهها تشف عما كان يجول في
خاطرها من الأفكار:

"إن عمران الفتي المسكين مضطرب في نفسه كما اضطربت هي أيضاً
منذ سنوات عديدة. فإنها سمعت نفس الصوت الذي يسمعه ابنها الآن وآمنت
بالمدينة المنيرة وصممت مراراً علي السفر إليها. لكن في كل مرة حدث ما
ثناها عن عزمها. وذلك إما شغل عام في المدينة لم يمكنها تركه، أو تأثير بعض
الأصدقاء عليها لتأخير السفر شهراً أو شهرين ريثما تفكر في الأمر، أو انهماكها
في شيء لم تستطع الانصراف عنه حتى من أجل المدينة المنيرة. وبعد أن قابلت
زوجها ملأت محبته قلبها فنسيت الموضوع في بادئ الأمر، ولما أخبرته بعد مدة
أنها تقصد الشروع في السفر نحو المدينة المنيرة قبل الزواج أجاب ضاحكاً: إن

الكثيرين من كبار الناس وحكمائهم توصلوا الى الحقيقة. أنه لا يوجد مكان كهذا، وأن الذين شرعوا في السفر نحوه كمن يجري وراء السراب في الصحراء ولا بد من فشلهم في النهاية.

فهل هذا صحيح، وهل ليست هنالك مدينة منيرة، أو أنه ليس في الوجود ما هو حقيقي غير بيونن، أم تري ابنها مصيب وزوجها مخطئ؟ وفيما هي على تلك الحالة سمعت عمران يقول بجانبها: أماه هل أخبرك والدي عن عزمي؟

الأم: نعم يا ولدي العزيز: لكنني لا أريد أن أفكر فيه. فكيف يمكنك ترك هذا المشروع العظيم المبشر بمستقبل باهر لك، خصوصاً بعد الذي عاناه والدك من التعب للحصول عليه؟

عمران: لكنني يا أمي قد سمعت الصوت وينبغي أن أطيعه.

الأم: وأنا أيضاً سمعته مرة يا عمران وكنت علي وشك الرحيل، لكن لوإني فعلت ذلك، لكنت خسرت كل ما يجعل حياتي الآن بهجة، ولاضطرتُّ الى السفر منفردة كما تكون حالتك أنت أيضاً اذا سافرت، لأن غابريلا لن ترافقك فتضطر الى تركها والذهاب وحدك.

لاحت علي وجه الفتى سحابة طفيفة لحظة من الزمن ثم قال: لا يمكنك معرفة ذلك يا أماه، بل آمالي عظيمة في غابريلا وأني واثق بأنها ستذهب معي لأنها تحبني، ونفوذتي عليها قوي جداً.

الأم: أما أنا يا بني فلا أثق بها أبداً ولا أظنها ترافقك.

سكت عمران حينئذ ولم يجب شيئاً لأنه كان متأكداً من شدة محبته للفتاه وشدة محبتها له، وظن أن إقناعها أمر سهل عليه. وبعد قليل قال متجنباً الموضوع: ألا تشتاقين يا والدتي الى نور الشمس. إن بيونن مدينة مظلمة، ومن

الغريب إنني لم ألاحظ ذلك قبل أن ينبهني إليه النذير، فكم إنسان فيها تبدو علي وجهه أشعة الشمس؟ إني لا أعرف واحداً. أولاً تخافين من عدم الإصغاء الى الصوت؟ إنه صوت ملك المدينة المنيرة العظيم.

الأم: كنت أخاف يا بنيّ وكنت متشوقة جداً الى الضوء والى نور الشمس، إنما قد برحت تلك الأشواق من قلبي ولا أذكرها أبداً. فضلاً عن ذلك، أفلا تعلم أن عدداً كبيراً من أذكىء رجالنا قد أثبتوا أن ليس هناك مدينة منيرة ولا ملك عظيم لمدينة كهذه؟ وهم أن النفوس الساذجة فقط هتم لهذه الأمور. فلا تدع الناس يقولون أنك إنسان ساذج تختلف عن أولاد جيلك، ولا تحزن قلب أمك بسماعها عنك أمور كهذه. فقد كنت دائماً فخورة بك في قلبي، ولا أظن أن والدة أخري يمكنها الافتخار بولدها أكثر مني، فإنك محبوب أكثر من جميع شبان هذا القسم من المدينة. لكن إن صممت علي هذا السفر الطويل فإنك تخسر تلك المحبة، ويبدأ الناس يتكلمون عنك هازين أكتافهم استخفافاً بك وناظرين إليك كمن به جنون. فافتكر بأمك يا ولدي.

عمران: إنك تكسرين قلبي يا والدتي. لكنني لا أستطيع تناسي الصوت حتى من أجلك. فإني أسمع على الدوام ويجب أن أطيعه. وفوق ذلك فقد سمعت قصة الملك العظيم العجيبة فلا يستريح لي بال قبل شروعي في السفر إليه. فهو الشخص الذي طالما بحثت عنه، ولا أحد سواه يستطيع إرواء غليل نفسي، وقد اعترفت به اليوم ملكاً وإني على وشك السفر إليه في الحال. فيا ليتك يا أمه تطيعين الصوت أنت أيضاً وتأتين معي.

فقالت أمه عابسة: أتجاسر على كسر قلبي، وهل هذه هي مكافأتك لأتعب والدك التي عاناها للحصول لك على هذا المركز الحسن؟

فأجابها بحزن وورزانة: يجب أن أعطي المكان الأول في قلبي للملكي.
الأم: إذا فحصت قلبك تجد غابريلا تحت ذلك المكان.

عمران: ها أنا ذاهب في طلبها. قال هذا وخرج، ولما جاء الى بيتها
وجدها في الحديقة. أما هي فلم تقابله بابتسامتها المعتادة، ففهم لأول نظرة أن
نفوراً وقع بينهما بسبب التفكير في المدينة المنيرة، ولما ناداها ابتعدت عنه قليلاً
وقالت:

لقد سمعت عنك أموراً غريبة يا عمران، فانك رفضت المركز الذي
أوجده لك والدك، وذلك يدلني على أن محبتك لي ليست كما عبّرت عنها.
عدا ذلك فإن والدي لا يسمح بأن تكون لي أقلُّ علاقةً بإنسان غير قادر على
القيام بحاجيات امرأته.

عمران: أري أنك سمعت أنني علي وشك السفر الى المدينة المنيرة.
فقلت محولةً نظرها عنه: إنني سمعت هدياناً كهذا وعليه يجب أن تختار
بين هذه المدينة وبينني. لأنني لا أريد زوجاً يكون موضوع هزءٍ للجميع. فإنَّ
رفضك الدخول هذا المشروع العظيم ضرب من الجنون.
أجاب عمران: بل إن رفضي الدخول في هذا المشروع مما يجب أن
يرفعني في عينيك، ويجعلك ترافقيني.

فالتفت إليه غابريلا ضاحكة لهذه الفكرة وقالت: إن السفر لا يوافقني
فكيف يمكنني تحمل المشاق، التي على ما يروون، تنتظر المسافرين الى المدينة
المنيرة؟ فهذه الأمور تخيفني حتى الموت. ثم قالت وفي عينيها شيء من الدلال:
وفوق ذلك فالرفقة ستكون مملّة.

فنظر إليها عمران نظرة المتحير وقال: أري أن محبتك لي ليست كافية
لإرغامك علي ترك كل شيء من أجلي.

فأجابت: علي كل حال لا يمكنني مرافقتك في هذه السفرة، وقد
ابتدأت من الآن أشعر أنك تغيرت عما كنت عليه قبل صوت النذير. فإنك
قلت لي مراراً أنك مستعد للذهاب معي الى آخر بيونن، وها أنت الآن تطلب
مني الخروج منها معك.

فعند سماع عمران هذا الكلام جثا أمامها علي ركبتيه وأخذ يؤكد لها
بانفعال شديد أن محبته لها أعظم جداً مما كانت عليه قبلاً. وأنه يجبها حتى
الموت.

غابريلا: إذا برهن علي ذلك بطرحك تلك هذه الأوهام المضحكة
جانباً. ولا تتصرف كمن يحاول أن يظهر أنه أفضل من غيره. وافتكر بكل
الذين دخلوا هذا المشروع. فهل تعتقد أنك أفضل خير منهم.
أجاب عمران: كلاً إنما أنا سمعت الصوت.

غابريلا: لا تتكلم هكذا، فإن أقوالك هذه تجعلني أخاف منك.
عمران: وهل لم تسمعي أنت أيضاً الصوت يا غابريلا.

فسحبت غابريلا يدها من قبضته، وسدت بهما أذنيها الصغيرتين
الجميلتين وصرخت قائلة: لا. لا. بل لا أريد أن أسمع. وإن كانت بيونن
مقضيّاً عليها حقيقةً، فلا يكون ذلك الآن ولنا فرصة بعد. فأنا لا أستطيع
تحمل المشقات ولا أريد سماع الصوت.

عمران: لكنه قد قيل لي أن ملك المدينة المنيرة يعتني بالمسافرين إليها،
وأنا في نهاية سفرنا سنراه في بهائه.

فأجابت غابريلا بخشونة: بل ليس هنالك ملك ولا مدينة منيرة ولا من
يؤمن بهذه الخرافة الآن. وكذلك أيضاً فإنك لم تسمع صوتاً قط، وليس ما
تدعيه سوى وهم في مخيلتك.

فأخذ يؤكد لها بأنه قد سمع الصوت فعلاً.

فصاحت به قائلة: لا تتكلم هكذا، فإن أقوالك هذه تجعلني أكرهك.
والأفضل أن نفترق الآن لأنني لا أريد زوجاً يخيفني بكلامه ويصرّ على أخذي
معه في هذا السفر الطويل. عليك أن تختارَ بيني وبين مدينة أحلامك هذه. أما
أنا فإنني أرفض الذهاب معك رفضاً باتاً.

وهل أضطر إذاً الى السفر وحدي؟ قال عمران هذا ووقف ينظر إليها
بعطف شديد.

فندمت على كلامها وبسطت يديها إليه قائلةً: كلاً يا عمران إنك لا
تضطر الى عمل ذلك. بل ليس في الدنيا ما يرغمك على الذهاب مطلقاً. وأنا
في حاجة إليك ولا أتحمل البقاء بدونك فلا تتركني. وأنت تقول أنك تحبني،
فإن كانت محبتك لي كافية لأن تنسيك المدينة المنيرة، فابق هنا واشتغل من
أجلي. إنك لا تستطيع فراقني ولا أظنك ستذهب.

وإذ نظر عمران الى عينيها الحلوتين الطافحتين بالمحبة شعر بعدم
إمكانية فراقها. فصرخ فوراً: إنك سوف تكونين مدينتي المنيرة وسأعيش
وأعمل لك.

الفصل الثالث

سمة الملك

مرت الأسابيع وقد طرح عمران عنه الفكر في المدينة المنيرة جانباً، ساداً أذنيه عن سماع الصوت، وكان إذا سمعه يلوح له بعيداً جداً. وصار يتعجب كيف أثر في نفسه من قبل.

ذلك لأن عمله الجديد، والفكر في أنه يوماً فيوماً يكسّر ثروة لسد حاجات غابريلا، والاجتماع بأصدقائه القدماء، كل ذلك ملأ قلبه ووقته، وكان إذا خطرت علي باله تلك الخطوة التي كان علي وشك اتخاذها، ينبذ التفكير فيها فوراً.

لكنه صار يلاحظ أن والدته كانت أحياناً عند نظرها إليه تبدو علي وجهها علامات الفشل. فهل ذلك وهم فيه، وهل هو متوهم أيضاً أن سلوك غابريلا معه لم يعد كما كان سابقاً. فإنها كانت في الماضي تنظر إليه كما إلي شخص أعلي منها، مدعنةً لما يقدمه لها من الأفكار، خاضعة لنصيحته في أغلب الظروف. وأما الآن فكان يشوب كلامها معه في بعض الأحيان شيء من الاحتقار كأنه سقط في عينيها من المستوي الرفيع الذي وضعته فيه.

وكان في أثناء النهار يقوي علي طرد هذه الأفكار والشكوك من مخيلته لانهماكه بالعمل والملذات، لكنه عند حلول الليل كان يصرف الساعات الطوال متفكراً فيها. وكثيراً ما كان يكره نفسه ويحتقرها لعدم استطاعته الجزم في الأمور ولما أظهر من الضعف في تحوله عن عزمه هرباً من الصعوبات. وكان إذا فكر في المشروع الذي اشترك فيه يشعر بحمل ثقيل علي قلبه.

أخذ اليأس يستولي عليه شيئاً فشيئاً وجعل يسائل نفسه: أيمكن أن سماع الصوت يستفز نفسي مرة ثانية. وهل تتاح لي فرصة أخري للسفر الى المدينة المنيرة.

مقتَ عمران نفسه وازداد غمه، فذهب في أحد الأيام للتفتيش عن النذير فقيل له أنه قد برحَ بيونن منذ بضعة أسابيع فرجع الي بيته خائباً. ولم يعد يشعر براحة في قلبه وصار لا يكثرث لعمله. وأخذ أصدقاؤه يتحولون عنه واحداً واحداً إذ لم تعد لهم لذة في عشرته كما كان من قبل.

ولاحظ والده أنه ليس علي ما كان يعهدهُ، فنسب ذلك الي كونه يجهد نفسه في العمل. وأما عمران فعرف لدهشته أن ما يزعجه وما يستفز نفسه المائة بحسب الظاهر هو الصوت الصارخ:

"اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب".

فهل كان ذلك تخيلاً ووهماً؟

أدرك عمران أنه خاطئ وأن حياته لم تكن مُرضية فعظمت تعاسته. وبعد نزاع شديد في نفسه قرر السفر الى المدينة المنيرة مهما كلفه الأمر حتى علي فرض أنها مدينة وهمية.

وكان أمله في الدخول إليها ضعيف جداً، وخشي أن ملكها "إن كان هنالك حقيقة ملك" يرفضه لتحوّله عمداً عن السفر إليها سابقاً. لكنه علي الرغم من تلك الشكوك صمم الفكر علي المخاطرة وعلي وضع نفسه تحت رحمة الملك إذا وجدته.

وكان في تلك المرة مستعداً لتحمل كل ما يصيبه من الازدراء والسخرية، ولم يكن يخشي شيئاً سوي خسارة غابريلا، فإنه عرف أنها كانت تأتي كل الإباء سماع ذكر اسم المدينة المنيرة، وتأكد أنها لن ترافقه أبداً وانه

سيجبر علي تركها والسفر وحده. فصرف الليالي الطويلة مغموماً يفكر في الأمر. إلا أن ذلك لم يثنه عن عزمه وقد صار يخاف أنه إذا أحرَّ سفره مرة أخرى، يصبح قبوله في المدينة المباركة أمراً مستحيلاً.

ولم يخبر عمران والديه عن عزمه مخافة أن لا يصدقاه بعد تراجعهم في المرة الأولى، لكنه ذكر الأمر لغابريلا بشجاعة. فضحكت منه وقالت بهزاء: سأصدقك عندما تشرع في السفر ومتى وقع ذلك نفترق الى الأبد.

فتوجه عمران بوجه كئيب ويأس شديد نحو باب المدينة الشرقي. حيث ينبغي أن يبدأ سفره. ولما وصل إليه وجدته مغلقاً. فأخذ يتلفت حوله باضطراب وإذ ذاك رأى إنساناً قادماً إليه فسأله:

أهذا هو الباب الى المدينة المنيرة يا سيدي، وما هي طريقة فتحه؟

فقال الغريب: ولماذا تريد معرفة ذلك يا بني؟

عمران: ذلك لأنني مضطرب جداً وقد عزمت علي الهروب من هذا المكان المظلم، ولوإنني غير متأكد من أنه سيؤذن لي بالرحيل بعد أن أحرته زماناً طويلاً.

الغريب: وما الذي يزعجك أيها الشاب؟

عمران: لقد سببت انزعاج نفسي بيدي. فإنني بعمد سدوت أذني عن سماع الصوت، وأنفقت الكثير من حياتي القصيرة في الخطيئة والجهل حتى غدوت لا أجد راحة لقلبي. وخطاياي عديدة جداً فلا أستطيع رفع رأسي. فهل عندك يا سيدي ما يعزيني؟

فأشار الرجل إلي كلمات كانت محفورة علي الباب ولم يكن عمران قد انتبه إليها:

" تعالوا إلي يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم "

ثم قال: هذه هي رسالة الملك العظيم لك.

فسأله عمران متعجباً: أهي لي؟

أجاب: نعم إنها لك ولكل المحتاجين إليها وللذين أخطأوا ويطلبون الغفران وللذين يعلقون آمالهم علي رحمته وقد شعروا بخطأهم وشقائهم وحاجاتهم الى مخلص.

فصرخ عمران: أنا هو ذلك الخاطيء وقد ضللتُ كخروف عن القطيع. فاسمح لي يا سيدي بالدخول، فابدأ السفر الى المدينة المنيرة لأطرح نفسي عند قدمي ملكي وأشكره علي رحمته لي.

الغريب: إنه لا يمكنك اجتياز الباب بدون سمة الملك. وهي صليب من الدم تحمله دائماً علي جبينك فيكون لك مفتاحاً يُفتح الباب بواسطته وطلسمًا يرافقك في سفرك.

عمران: وماذا تعني بذلك؟

الغريب: أعني أنك من خاصة الملك العظيم وقد رسم سمته علي جبينك وغسل خطاياك بدمه فغفرت لك. وأن ملائكته يرافقونك في مسيرك. وما عليك إلا أن تدعوه فيستجيب لك وينقذك.

عمران: وهل من الضروري أن يحمل هذه العلامة كل من أراد السفر إلي المدينة المنيرة.

الغريب: لا يستطيع أحد أن يباشر السفر بدونها لأن الباب لا يُفتح إلا لمن ختمت علي جبينه.

عمران: أعطني المفتاح يا سيدي فأبتدئ السفر حالاً.

الغريب: لا يقدر إنسان قط علي إعطائك المفتاح ولا فتح الباب، وقد لا يكون ذلك إلا عن يد الملك نفسه، وما أنا إلا رسوله.

فسأل عمران بجزن: أيجب إذاً أن أنتظر؟

الغريب: كلا. لا تنتظر أبداً فإن الملك ينتظر الآن كي يفتح لك الباب، بل هو بانتظارك منذ سنين عديدة. وهو يفرح اليوم في المدينة المنيرة لرؤيتك ذاهباً إليه. " فإنه يكون فرح عند ملائكة الله بخاطبي واحد يتوب ".

فقال عمران بحيرة: إنني لا أري الملك فكيف أفتح الباب؟

الغريب: بل الملك يراك يا ابني وهذا ما يهم. وأما أنت فينبغي أن تطيع الكلمات المكتوبة فوق الباب: "تعالوا إلي". وحال بلوغك البوابة يفتح الباب من نفسه، فيرسم الملك سمته على جبينك كي تصير من خاصته. وما عليك بعد ذلك إلا أن تثق به.

حينئذ اقترب عمران من البوابة بفرح، ففتح له الباب ورسمت علامة الملك علي جبينه. ولما جاء إلي الجانب الآخر وجد نفسه في شعلة من المجد والبهاء. وكان الفرق بين هذا المكان وذاك الذي خرج منه شاسعاً. فسري سلام الى قلبه ولم يتمالك عن أن يجثوا على ركبته شاكرًا للملك غير المنظور الذي نزع عنه حملة الثقل وشقاءه. وصرخ قائلاً: "أحمدك يا رب يا إلهي من كل قلبي وأمجد اسمك الى الدهر. لأن رحمتك عظيمة نحوي وقد نجيت نفسي من الهاوية السفلي".

الفصل الرابع

تقلد السلاح

قام عمران بعد ذلك كما من حلم. وتلقت حوله فوجد نفسه في أرض فسيحة، فيها الجبال والأودية والأنهار والبحيرات، والأشجار الصالحة للقيولة تحتها. وجذب نظرة عن بعد شاسع جداً ضباب ذهبي باهر لا تكاد العين تراه، فصرخ بلهفه: "إنها المدينة" !

ثم التفت الى الوراى ونظر لحظة الى بيونن المدينة التي برحها فهاله روع ظلامها. وسمع صوتاً خفيفاً، صوت المرح خارجاً منها. ولمح من بعد أنوارها الضئيلة المرتجفة فارتعش جسمه لكآبة منظرها. ثم حول وجهه ثانية نحو الشرق الى جهة المدينة المنيرة هاتفاً من قلب فرح، وقد أحسَّ أن له أجنحة يطير بها، وأن السير الى المدينة المنيرة ليس إلا سعادة محض. وتراءى له أن الطريق سهله جميلة، لا حجارة ولا سبل وعرة فيها. وشعر أن كل خطوة يخطوها ترفعه الى العلاء حيث تزداد نقاوة النسيم.

وفيما هو في تلك الحالة رأى فجأة النذير.

وقال له ذلك: يجب أن يكون معك يا بني دليل يهديك في الطريق ويلازمك على الدوام. وستلقي في سفرك أعداء كثيرين وهؤلاء سيبدلون جهدهم لسلبك إياه، فانتبه لئلا يضيع منك ولا تفرط به مهما كانت الظروف. فإن تنازلت عنه هلكت لا محالة، إذ لا تعود قادراً على الاهتداء الى المدينة. وسيكون الكتاب كنزاً ثميناً.

تناول عمران الدليل من النذير بلهفه وأخذ يقلب صفحاته ودهش للعبارات التي وقع عليها نظره، فإنها تكلمت عن عدولابد من مقابلته، وعن وجوب حمل سلاح يتمكن الإنسان بواسطته من المصارعة مع "الرؤساء

والسلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة الدهر. مع أجناد الشرّ الروحية في السماويات". وكذلك أيضاً تكلمت عن "سهام الشرير الملتهبة".

فنظر الى النذير بحيرة وقال: لست أفهم هذا الدليل فإنه يتكلم عن أعداء وأنا لا أري واحد منهم.

أجاب النذير: إن القسم الأول من الطريق قد يكون في الغالب سهلاً. فقد سافر مرة قوم من خاصة الملك الى بلاد تفيض لبناً وعسلاً فقادهم في طريق معوجة كي لا يقابلوا العدو قبل الأوان، فيضعف عزمهم ويرجعوا الى الورا. أما أنت فينبغي أن تتقلد سلاح الملك علي الدوام لأنك لا تعرف الوقت الذي يهاجمك العدو فيه.

عمران: ومن أين أتخذه؟

النذير: ها هو مطروح عند قدميك!

التفت عمران ورأى السلاح فتقلده.

وقال النذير: يجب أن لا تنزع هذا السلاح عنك مطلقاً. لأن العدو

العظيم كامن، فإن رآك بدونه اغتتم الفرصة في الحال لمهاجمتك.

فسأله عمران باهتمام: وما هو شكل هذا العدو وما اسمه؟

النذير: اسمه إبليس، وجيوش بأسرها في خدمته. ومن المحتمل أنك لا

تضطر الى مقاومة إبليس نفسه لأنك صغير وعديم الأهمية. علي أنك ينبغي أن

تعلم أنك إذا نموت وصرت للملك خادماً مقتدراً ذا فائدة، وحاربت الكثيرين

من أعدائه، وساعدت عدداً من خدامه في طريقهم، فلا بد من أن يهاجمك

العدو العظيم نفسه. والويل لك يومئذ إن كان سيفك يعلوه الصداً أو كنت

مجرداً من السلاح.

عمران: وهل تزداد الطريق صعوبة وخطراً كلما دنوتُ من المدينة

المنيرة؟

الندير: إنني لا أعلم ذلك. لكنني أعرف أن الجميع لا يُرشدون في ذات السبيل على الرغم من أنهم كلهم ذاهبون إلى المدينة المنيرة وقاصدون جهة واحدة. فالبعض يشتد كفاحهم في أول سفرهم، وآخرون في وسطه، والبعض الآخر يكافحون إلى النهاية حتى عند عبورهم النهر. وقد يكون هذا في الغالب من نصيب أشجع وأحسن الجنود، لأن العدو الكبير لا يفارقهم ويعمل كل ما في إمكانه ليمنعهم من العبور إلى المدينة المنيرة. فالنضال يزداد شدة كلما ازداد الجندي بسالة.

عمران: إنني عازم على أن أكون جندياً مقداماً. ولن أحولنَّ ظهري إلى

العدو.

الندير: انتبه يا بني، فقد رأيت الآن عدواً مختبئاً في الحشيش المرتفع قريباً منك وأنت لا تشعر به. واسم هذا العدو "المتفاخر". ولا يظهر بشكل مريع بل هو صغير الحجم جداً فتميل إلى احتقاره وعدم الاكتراث به.

ابتسم عمران غير مصدق كلامه، لكنه لم يكذب يلتفت إلى الورا حتى شعر بلطمه على كتفه سببت له ألماً شديداً فسقط منكباً على وجهه. ورأي على مسافة بضعة أمتار منه مخلوقاً صغيراً مكشراً عن أنيابه، وقسماته المضرة بادية في وجهه.

فقفز للحال مذعوراً وخجلاً من أن عدواً عديم الأهمية كهذا تغلب عليه. ولما هدأ روعه تطلع فلم يرَ أحداً بجانبه. وتذكر أن اللطمة صدمته من الورا وأنه لا يملك سلاحاً لظهره فجعل يفكر في الأمر. وأول مرة قابل الندير بعد ذلك سأله عن السبب.

فأجابه: من المحتمل أن ذلك لتعليمك كي تكون دائماً علي استعداد
للاصطدام مع العدو وجهاً لوجه ومنتبهاً لئلا تُهاجم على حين غرة. واحذر
من أن تظهر خوفاً وتلجأ الى الهروب. والويل لك إن حولت ظهرك للعدو
سواء كان ذلك عن إهمال أو خوف.

فقال عمران بجزن: لقد ابتدأت أشعر أن الطريق ليست سهله كما
ظننتُ.

ومن ذلك الحين ابتدأ يسير بانتباه مراقباً " المتفاخر " وغيره من الأعداء
الذين كان يصعب تمييزهم لصغر أجسامهم. ومن أشد هؤلاء ضرراً واحد
يدعي "سرعة الغضب"، فهذا كان إذا داس عمران على حجر مزحلق، أو
اشتدت حرارة الشمس، أو هب الهواء على السهل بارداً، يقوم عليه ويلطمه
علي فمه. وكثيراً ما كان يعدُّ الطريق لعدو آخر أشد روعاً منه يدعي "الخلق
السيئ". "والخلق السيئ" هو اسم عائله مؤلفة من ثلاث بنين يدعي الصغير
فيهم "الحرد". وهذا يسير بجانب فريسته بهدوء قاطب الوجه. فإن سمحت له
بالبقاء تشتد عبوسته شيئاً فشيئاً حتى يلتصق بردائها كالكلاب ويصبح
التخلص منه صعباً جداً.

ويدعي الأخ الثاني "النقمة" وهو شديد الخطر جداً لأنه دائماً يمدُّ
فريسته بحراب ويحضُّها على القيام له بعمله.

أما الأخ الكبير المدعو "الغضوب" فكان يزعج عمران أكثر من أخويه.
وكانت لهذا معرفة به وهو لا يزال في بيونن، لكنه لم يكن حينئذ ينظر إليه
كعدو. بل بالعكس فإنه كان يستفيد منه في ظروف كثيرة، وذلك نظراً لكونه
طويل القامة مهوباً شرس الطالعة. فكان أصدقاء عمران يخافون منه وهو في
رفقته فيقوي عليهم وينال مرامه منهم. أما الآن وقد كان على الطريق الى

المدينة المنيرة فتعجب من مقابلته فيها مراراً، وشعر بضرورة قطع العلاقة معه.
وتألم كثيراً عندما وجد التخلص منه صعباً.

ومع أن "الغضوب" في تروده على عمران لم يطل الإقامة عنده كما كان يفعل سابقاً، فإنه كان يبقى زمناً كافياً لجعل رفاقه المسافرين ينظرون إليه شزراً ويقولون فيما بينهم: أيمكن أن يكون هذا الإنسان على الطريق إلى المدينة المنيرة مادام الغضوب يسير بجانبه؟

ولم يقابل عمران في أوائل سفره، غير هؤلاء الثلاثة، إلا القليلين من الأعداء. وكان في بعض الأحيان يحتار في معني قول الدليل عن "المصارعة مع الرؤساء والسلاطين".

الفصل الخامس

أعداء الطريق

لم يمض إلا يسيراً حتى وجد عمران أن طريقه ليست سهلة كما تصور، بل كان فيها تلالاً صعبة التسلق، وصخور وحجارة حادة جرحت رجليه وأمتهما، واستولي عليه اليأس مراراً لشدة تعبها، ولاحت له المدينة المنيرة بعيدة جداً. وكان في بعض الأحيان يشعر بوحشة لفراق أصدقائه القدماء.

ولم تجتمع في طريقه مع عدد كبير من الناس. على أنه كان يرى أفواجاً منهم مسافرين بلا خوف في سبيل متسع، ظهر أحياناً كأنه مؤد إلى المدينة المنيرة، يلتقطون الزهور ويرتلون بانسراح. فكان ينظر إليهم بشيء من الحنين. وقد مرّ به في السبيل الضيق أيضاً عدد من السائحين. ولكن هؤلاء كانوا يجردون أحياناً في السير ولم يظهروا ميلاً لإضاعة شيء من وقتهم معه. فكان أحياناً يشعر بالوحدة.

وإذ كان في أحد الأيام يفكر في أمور محزنة وقد تغلب عليه الغم، لمح ثلاثة أشخاص صغيري الأجسام بلباس أشهب، جالسين إلى جانب الطريق فمال إليهم، وقد نسي نصيحة النذير له، وجلس يحادثهم. لكنه شعر في الحال أنه لم يحصل على تعزية في رفقتهم بل ازداد غمّه.

ولما سألوه عن غاية سفره، أجابهم أنه قاصد المدينة المنيرة.

فقال أحدهم: إنك لن تصل إليها أبداً، فإن علامات الكآبة والبؤس

البادية في وجهك تدل على أنك لست خادماً للملك العظيم.

عمران: حقاً إنني أشعر بالوحدة في بعض الأحيان.

الغريب: لكنني ظننت أن كتابك سيعلمك ألا تكون وحيداً أبداً.

فمستحيل أن تكون من أحد جنود الملك ما دمت تشعر بالوحدة.

وسأله آخر: متى بدأت سفرك؟

عمران: منذ شهرين، وإني آسف جداً لأنني تأخرت هكذا.

الغريب: منذ شهرين فقط؟ ها قد أضعت الكثير من أحسن أيام حياتك. وهل تنتظر والحالة هذه أن الملك يقبل من أحتقر رسالة كل هذه السنين؟ وأي برهان لديك على أنك من جنوده ومقبول عنده؟

وقال له الثالث: ها أنت لا تختلف في شكلك عن غيرك من الذين أعرفهم، ولا تزال علامات المدينة المظلمة بادية عليك، فكيف تعرف أنك من خاصة الملك؟

عمران: إني قد قابلت النذير وهو أخبرني أن الملك يجني.

الغريب: ليست في استطاعة النذير معرفة ذلك، لأنه لا يعرف جميع خطاياك. فافتكر في السنين الكثيرة التي صرفتها في المدينة المظلمة، غير مفكر في الملك مطلقاً.

ثم قال أحدهم، وكان قد سمع قصته: اذكر أيضاً كيف عدلت عن السفر بعد أن صممت عليه.

عمران: لكن الملك قد مات من أجل الخطاة.

الغريب: نعم، غير أنه لم يميت من أجل خطاة نظيرك. وفوق كل ذلك لو كنت من خدامه، لظهر السرور في وجهك، ولتقدمت بأكثر سرعة. فهنا أنت على الطريق منذ شهرين ولم تقطع الآن سوي مسافة قصيرة. فأبي رهان لديك على أنك مقبول عنده؟

عمران: إني أعرف أنه يستحيل أن يخلف وعده وقد قال: "من يقبل إليّ

لا أخرجته خارجاً". ثم التفت إليهم فجأة وسألهم: من أنتم؟

أجابوا: نحن عائلة تدعي "العليل" وقد اتخذنا على أنفسنا تحذير الناس الذين نراهم يخدعون نفوسهم.

حينئذ أخذ عمران الندم لاقترابه منهم فقال: لا ينبغي أن أمكث هنا للحديث معكم، بل يجب أن أواصل السير الى الأمام.

أما هم فلم يعبأوا بكلامه ولم ينصرفوا عنه مع أنه لمح لهم بأنه لا يرغب في رفقتهم، بل ساروا الى جانبه مسافة يشوهون أفكاره بأنباء كثيرة أخيراً تمسكوا بردائه لتسهل عليهم مرافقته.

فسألهم عمران وقد ابتدأ يرتاب في أمرهم: وهل أنتم أيضاً سائرون الى المدينة المنيرة؟

أجابوه بمراوغة: ولماذا لا؟ وإذ رأوا أن جوابهم لم يُرضِ الفتي قالوا: ولم هذه السرعة؟ فإنك غير متيقن من أن الملك سيقبلك. فماذا يحلّ بك إذا رُفضت من المدينة عند وصولك إليها. ونحن أيضاً غير واثقين من أنك ستواظب على السير، وعليه يكون أفضل لك أن تعدل عن السفر الآن.

ولما سمع عمران كلامهم هذا سحب رداءه من قبضتهم بعنف. على أنهم تشبثوا برجليه فصار لا يخطوا خطوة إلا بجهد شديد ولم يستطع الإفلات منهم وكانوا إذا رأوه يحاول ذلك يزدادون التصاقاً به. وأخيراً سحبه الى الأرض فانطرح عليها يائساً منهوك القوي، ولولا مرور النذير من هناك على حين غرة، ل بقي في قبضتهم مدة طويلة.

وناداه عمران قائلاً: إنني يا سيدي في شدة عزيمة. فلقد مرتت بعائلة "العليل"، وإذ رأيت علامات المسألة على وجوههم ملت للاستراحة عندهم ومع إنني لم أتحدث معهم سوى بعض دقائق، فإنهم لم يفارقوني منذ ذلك الحين. وها أنا لا أستطيع التخلص منهم.

فصاح النذير قائلاً: أين سيفك أيها الإنسان، فهل نسيت السلاح، وهلاً تعلم أن ناقشة العدو والمداولة معه يؤديان بك الى الهلاك؟ فها سيفك في غمده وأنت لا تعمل به، فاسحبه وأشهره للحرب. فسحب عمران حينئذ سيفه وأشهره على الأعداء ذوي اللباس الأشهب ففروا من أمامه في الحال. وقال له النذير: إن سقوطك يا بني مسبب عن عدة أمور. فقد غفلت عن السهر، واستصغرت العدو واحتقرته، ونسيت سيفك. وفوق ذلك فإنك لم تشدّ منطقتك فارتخت عن حقويك. فاتخذ نصيحتي ولا تحتقر العدو مهما بان لك صغيراً وعديم الأهمية. فإنه كثيراً ما ضاعت معارك بسبب ذلك. وسأله عمران: هل سأجدك دائماً قريباً مني لأستعين بك عند السقوط؟ النذير: لا أظن أننا سنجتمع مرة أخرى في هذا المكان لأنه ينبغي أن أذهب وأعمل للملك. ولكن أنت لا تحتاج قط الى نذير مادام الملك نفسه معك.

فقال عمران بحيرة: إنني لا أري الملك، وها أنه لم يأتي لمساعدتي. النذير: إنك نسيت أن تدعوه، فهو يسمع نداء أولاده مهما ضعفت أصواتهم. وأما أنت فإنك اتكلت على قوتك وغفلت عنه، ومع ذلك فإنه جاء لمعونتك بإرساله في هذه الطريق حتى أساعدك.

عمران: كيف لي أن أعرف أنه يسمع دعائي ويريد مساعدتي؟ النذير: إن سؤالك هذا يدلّ على أنك لم تطالع الكتاب كما يجب ولا تعرف وعوده. قال النذير ذلك وفتح الدليل الذي كان لا يبرح من يده، مشيراً الى عمران أن يمثل به. ثم قال: أصغ الى كلمات الملك العظيم: "عينا الرب نحو الصديق وأذناه الى صراخهم". "هذا المسكين صرخ والرب استمعهُ

ومن كل ضيقاته خلصه". "ملاك الرب حالٌ حول خائفيه وينجيهم". "لا أهملك ولا أتركك". "ها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر".

عند سماع عمران هذه الأقوال المدهشة ظهر السرور على وجهه، فقام وجدد السير بالرجاء والثقة، ولو أنه كان يأسف لفقدان الأمل برؤية النذير مرة أخرى. ولما لفت نظره نحو الشرق لاحظ شدة لمعان النور المنبعث من المدينة المنيرة، فابتدأ يرتل بقلب بهج غير محول نظره عنه. ولم يعد يشعر بالوحدة لأن قلبه طفق بالبشارة السارة أن الملك معه على الدوام.

وكان سبيله حينئذ على تلة وعرة جداً. على أنه لم يلاحظ وعورتها لعظم فرحه، وفي منتصف الطريق التقى "بالخلق السيئ" فعبس متعجباً من شدة شناعته وقال له: احذر لنفسك فإنني لست راغباً في أن تكون لي علاقة بك. فكثيراً ما صحبتني في الماضي، وأما الآن فلا حاجة لي إليك ثم أشهر عليه سيفه فترجع الى الوراء مسرعاً. لكنه لاقاه بعد قليل على مسافة أكثر ارتفاعاً من الأولي "وقد أبي مفارقتة بسهولة". ولما رأى الجندي ساهراً على نفسه، وأنه لا يقدر على مهاجمته، انسحب عنه بوجه عبوس مهدداً إياه بالانتقام منه فيما بعد.

أما عمران فتقدم الى الأمام متهللاً لنصرتة وأخذ يهنئ نفسه بأنه أصبح جندياً باسلاً، قادراً على غلبة العدو. وبعد قليل تطلع ثانية نحو المدينة المنيرة فدهش لرؤية ستاراً رقيقاً يحجبها عن نظره. على أنه لم تهتم للأمر بل استمر يرم فرحاً. ولم يسر سوي مسافة قصيرة حتى لحق بإنسان يسير ببطء باحثاً عن خطوات، ومتجنباً الحجارة غير الثابتة والأماكن الزلقة.

فألقي عليه السلام وقد فرح جداً للالتقاء به وقال: أراك يا صاح سائر في السبيل الذي أنا أسير فيه.

السائح: نعم وإني على الطريق الى المدينة المنيرة.
وسأله عمران متعجباً من شدة انتباهه وبطئه. وكم لك من الزمان على
هذه الطريق؟
فأجاب متأوهاً: عشر سنوات. وإني لسوء الحظ لا أتقدم بسرعة الى
الأمم.

فصاح عمران بدهشة: عشر سنوات! إنه ليس لي على الطريق عشرة
أشهر بعد. فما الذي يجعلك تسير بكل هذا البطء والحذر؟
أجاب متنهداً: ذلك لأنني طالما سقطت وتأخرت عن السير لعدم الانتباه
فهوذا في الأسبوع الماضي فقط زلت قدمي على حجر غير ثابت، فألتوي
كاحلي وكانت نتيجة ذلك أن فاز عليّ في العراك أول عدوالتقيت به.
عمران: أو لا تستعمل سيفك؟

السائح: إن سيفي لا يفارقني أبداً، ولولاه لهلكت في الطريق منذ زمن
طويل.

فقال عمران: انظر الىّ فها قد انتصرت وتغلبت على العدو وأنا لا
أرهبُ شيئاً. فتوكل على الملك وتقدم الى الأمم مسرعاً.
السائح: إن مجرد الاتكال عليه لا يكفي، بل يجب علينا أن نطيعه أيضاً.
فقد قال في كتابه "مهد سبيل رجلك فتثبت في كل طرقك". "لا تمل يمنة ولا
يسرة". "باعد رجلك عن الشر".

فقال عمران: سيكون تقدمك والحالة هذه بطيئاً جداً.
السائح: لقد اخترتُ أن "السعي ليس للخفيف ولا الحرب للأقوياء"
وقد تعلمت ذلك بعد سقطات كثيرة. ولست أحكم في هذا الأمر لك أو
لسواك بل لنفسي. فإنني أعلم أن الطريق الوحيدة لسلامتي هي أن أعيش

ناظراً الى الملك يوماً فيوماً ومهدداً السبيل لرجلي. أليس مكتوباً: "لتنظر عيناك الى قدامك وأجفانك الى أمامك مستقيماً" و"ناظرين الى يسوع"؟ قال هذا وصبوب نظره نحو المدينة المنيرة فطرح وجهه من نورها.

وتتبع عمران جهة نظره، فدعر لرؤية المدينة قد توارت عن عينه أكثر من الأول. بينما كان يري انعكاس نورها الباهر على وجه رفيقه. وأخذ يتلفت حوله مضطرباً وقد شعر بتأثير في نفسه لم يشعر بمثله قبلاً. ولم يعلم أن أكبر عدو كان يتعقبه متخفياً.

وقال لرفيقه دون أن يطلعه على ما كان يخالج قلبه من الأفكار: ينبغي أن أنطلق، فإن هذا الإبطاء في السير لا يوافقني. ولا أظن أيضاً أنه ضروري. ثم أشار بيده مودّعاً وقفز الى الأمام.

فتنهده السائح وقال: اواه! ياليتني صالح وقوي مثله. ولا أظنه معرضاً للسقوط في التجربة بسهولة نظيري، فإنني مضطر الى السير بكل حذر جميع أيامي لئلا اكدر محلصي الذي كابد كثيراً من أجلي. ثم أخرج الدليل وهو يسير وفتحهُ، فوقع نظره على هذه الكلمات "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل".

أما عمران فتابع طريقه صاعداً التلة وقد ارتخي سيفه علي جانبه. ولما لم يرَ عدواً أمامه نزع خوذته وحملها بيده، وكان لا يفكر إلا في كيفية انتصاره على العدو الذي أقبل عليه مرتين أثناء صعوده التلة. وعند اقترابه من القمة أخذ يهنئ نفسه متعظماً لكونه غير مضطر الإبطاء في السير كذلك السائح الذي قابله. وابتدأ ينشد كلمات، كان قد قرأها في الدليل، ظاناً أنها تنطبق على حالته الحاضرة.

"وأنا قلت في طمأنينتي لا أترعزع الى الأبد. يارب برضاك ثبت لجبلي
عزاً".

وما كاد يصل الى آخر العدد حتى سمع صوتاً يتكلم بجانبه. فالتفت
فرأى رجلاً برداء قرمزي مزين بخيوط ذهبية، وعلى وجهه تبدو ملامح
الأشراف فشغف بنظره وراق كلامه في عينيه.

وقال له ذلك: إنني أراك تسير سيراً حسناً. فلقلما صادفت سائحاً الى
المدينة المنيرة بوجهه يطفح سروراً نظيرك، ولا شك في أنك قد انتصرت انتصاراً
فرح قلبك.

فعلا الاحمرار وجه عمران وقال مسروراً: إنك مصيب في فكرك. فإنني
أجد الطريق أسهل مما تصورت، والعدو لا يزعجني مقدار ما انتظرت.

فقال الغريب: أنه يسرُّ الإنسان أن يري شاباً متعافياً سليم البنية يطاء
الطريق بعزم وثبات. فقد مررت على مسافة بضعة أميال من هنا بسائح يسير
بعناء شديد. ولاشك في أنه سقط مراراً عديدة ولم يوفِّق في السير نظيرك.

أجاب عمران: إنني قرأت في الدليل أنه يوصي ملائكته بي لكي لا
تصدم بحجر رجلي. فتوكلت عليه.

الغريب: هذا هو إذاً سبب تقدمك في السير، في أنه لو طرحت عنك
هذا السلاح الثقيل لازددت إسرعاً. فها أنا سائر في ذات الطريق التي تسير
فيها، فإن شئت فإنني مستعد لإسعافك في حملي.

فسأله عمران مستغرباً: أوليس لك سلاح تحمله؟ وكان يظن أن سلاح
ذاك كان محبباً تحت رداءه.

الغريب: لقد طرحت السلاح عني منذ زمن طويل. فإنني إنسان مسالم
وفي غني عنه. فهات سيفك احمله فيخف بذلك ثقلك.

تذكر عمران حينئذ تحذير النذير له فقال: كلا بل سأحفظ سيفي
لنفسى. إنما ستعمل معى معروفاً لو ساعدتني بنزع ترسى وحمله مدة قصيرة،
فالتخلص منه بضع ثوانٍ راحة لي بعد السير بكل هذا السرعة في هذا اليوم
الشديد الحرارة.

ولما وصل الى رأس التلة مال الرجل عن الطريق للسير الى الجهة
اليسرى.

فقال له عمران: قف، فقد أمرت أن لا أحول النظر عن المدينة المنيرة
كي لا أضيع الطريق، وأن لا أميل يمنة أو يسرة بل أسير مستقيماً.

الغريب: إن السير في الطريق المستقيمة يضطرننا الى المرور في تلك
الصحراء القاحلة وذلك يستوعب أياماً عديدة. وفوق ذلك فإنها مملوءة
بالأعداء. وأما الطريق التي سأدلك عليها فهي طريق مختصرة ولا تقابل فيها إلا
القليلين منهم. فيكون سيرك مكلاً بالظفر من أوله الى آخره. وعلاوة على
هذا فإنك برهنت على أنك قوي على النضال واكتساب المعارك ولست
سائحاً عادياً كذلك السائح المسكين الذي يتعثر على الدوام. فإن قطع
الصحراء ضروري له لكي يزداد اختباراً ويحصل على القوة التي هي لك الآن.
فلو صحبتني لن تندم أبداً. أو لم يعلمك كتابك أيضاً "إنه يوصي ملائكته بك".
فلم هذا الخوف؟

تردد عمران قليلاً ثم تبع ذلك الغريب. وتراءى له في بادئ الأمر أنه
حقاً غير معرض للأعداء. على أنه لم يشعر براحة داخلية لاسيما عندما لاحظ
أن المدينة المنيرة أخذت تغيب عن نظرة شيئاً فشيئاً منذ سيرة معه.

ولما رأى أن سبيلهما على منحدر مؤدٍ الى وادي مظلم خاف قليلاً إلا
أنه لم يجسر على التلميح بذلك الى رفيقه، الذي كان لا يزال يتكلم بنشاط

مادحاً ومفضلاً إياه على غيره من الذين قابلهم. وكانت الطريق تزداد ظلمة كلما تقدما في المسير. وأخيراً سُمعت زعقة شديدة، هاجمَ عمرانَ على أثرها جماعة من الرجال فاختلفوا سلاحه وطرحوه الى الأرض. ثم ربطوا رجله وجروه الى مغارة معتمه حيث تركوه ومضوا.

ولم يعِ عمران في بادئ الأمر ما جري لأنه أخذ مباغتة. ولما أدرك بعد قليل أن سلاحه قد نزع عنه وأنه ليس له ما يحارب العدو به وقد أصبح أسيراً في مغارة مظلمة بعد كل كبريائه وإعجابه بنفسه، اضطرب جداً وأخذ يراجع في فكره كيف وقع الأمر.

فتذكر بحزن كيف أنه لم يكن مطمئناً وهو بجانب السائح البطيء، بل شعر كأن قوة مقاومة كانت قريبة منه. فهل تلك القوة هي ذاك الغريب الذي أغراه فسقط؟ وتذكر أيضاً كيف أنه تعظم لاختباراته وانتصاراته واقتبس أقوالاً من الدليل لمدح نفسه بها، واستخف بالسائح المنتبه المبطئ في السير. وقد حسب نفسه جندياً للملك أعظم جداً منه، وكيف ارتأى له أن لا خطر عليه من نزع بعض سلاحه مدة قصيرة مع أن النذير حذره من ذلك.

وكان يئن متألماً وقد جرحت القيود رجله. إلا أن آلام جسده لم تكن شيئاً بالنسبة الى آلام نفسه. فانه شعر بسقوطه الهائل وعرف أنه لا يمكنه رؤية المدينة المنيرة في المغارة المظلمة التي كان فيها. فجلس مطاطيء الرأس يائساً مدة طويلة.

ثم أخذ يتلفت حوله فأبصر على حيطان المغارة كتابة مرسومة بحروف حمراء كبيرة:

"هذه ملكِ رئيس الكبرياء الروحية". وكان تحتها هذا العبارات:

"القواعد المفروض على جنود الكبرياء الروحية إتباعها كي يمكنهم القبض على جنود ملك المدينة العظيمة":

(١) اظهر الصداقة في كلامك مع المسافر الى المدينة المنيرة بعد

أن تكون قد أثرت في عقله بقوة غير منظورة.

(٢) شجعه كي يتكلم عن معرفته واختباراته الجسدية والروحية.

(٣) إن كان قد فاز في معركة، فذكره ببسالته وإقدامه.

(٤) اقتبس أقوالاً مجردة عن قرائنها لتبرهن له على أنه ليس

خطر من العدو.

(٥) حول أفكاره ما استطعت عن المدينة وملكها واحصرها في

نفسه.

(٦) أقنعه بعدم أهمية السلاح لإنسان قوي نظيرة.

(٧) ساعده على مقارنة نفسه بغيره من السائحين - ببطئهم،

بعثرائهم، وسقطاتهم، واجعله يفتخر بكونه أحسن منهم.

(٨) إن استطعت فاسلبه سيفه دون أن يلاحظ ذلك.

(٩) أغوه بأن هناك طريقاً مختصراً الى المدينة المنيرة تغنيه عن

تحمل الصعوبات في طريق طويلة جداً.

(١٠) أنسه الملك قبل كل شيء كيلا يستغيث به.

وليكن عملك كله بغاية من السرعة.

كان عمران يقرأ هذه القوانين وأنات مرّة تخرج من أعماق قلبه. وابتدأ

يحسد ذلك المسافر البطيء المنتبه الذي كان قد استخف به. وشعر بأنه حقيقة

غارق في مياه عميقة.

وحيثُ تذكر الدليل الذي في جيبه، فأخرجه وفتحته على نور المغارة الضئيل علّه يجد فيه قاعدة يسير بموجبها ويتخلص من هذا الأسر وهذه الصدمة. فوق نظرة على كلمات يونان النبي الذي شعر نظيرة، وبعد القصاص الذي وقع عليه بسبب خطيئته، أنه منبوذ من حضرة الله:

"دعوت من ضيقي الرب فاستجابني. صرختُ من جوف الهاوية فسمعتَ صوتي. لأنك طرحني في العمق في قلب البحار. فأحاط بي نهر. جازت فوقى جميع تياراتك ولججك. فقلت قد طردتُ من أمام عينيك. ولكنني أعود أنظر هيكل قدسك.... نزلت الى أسافل الجبال. مغاليق الأرض عليّ الى الأبد. ثم أصعدت من الوحدة حياتي أيها الربّ الهى. حين أعييت في نفسي ذكرت الرب فجاءت إليك صلاتي الى هيكل قدسك".

وتذكر أيضاً الكلمات التي اقتبسها النذير: "هذا المسكين صرخ والرب استمعه ومن كل ضيقاته خلّصه".

فعرف أنه كان جندياً ضعيفاً مسكيناً وأنه لم ينتصر بشجاعة وليس له ما يفتخر به، بل كل مساعيه ملطخة بالخطية. وأدرك أن لا ملجأ له غير الاستغاثة بالملك. إذ أن " هذا المسكين صرخ والرب استمعه ومن كل ضيقاته خلّصه".

فصرف بقية النهار بالصراخ الى الملك والاستغاثة به واستمرّ على ذلك حتى دخول الليل، على الرغم من ضعفه ومن الألم الناتج عن ضغط القيود على معصميه ورسغيه، لأنه كان واثقاً من أن الملك يستجيب الى "المسكين" كما وعد. وكان يفعل ذلك بألم شديد ودموع الندامة والتوبة تسيل من عينيه. وعند منتصف الليل أستجيب صلواته: فإنه أحس بأيد خفية تكسر قيوده وتخرجه من الكهف. وكم عظم سروره عندما شعوره بنسم الهواء النقي في الخارج، وحيث وجد سلاحه أرجع إليه وأنه سائر مرة ثانية على الطريق

المؤدية الى المدينة المنيرة. ووجد الطريق في صعوده أوعر جداً مما كانت عليه
وهو في رفقة الكبرياء الروحية.

أما المدينة نفسها فلم يمكنه رؤيتها إلا بعد صعوده مسافة نحورأس التلة
حيث نظرها آخر مرة. ولاح له نورها حينئذ ضباب فقط، وبقي كذلك عدة
أيام.

الفصل السادس

حرب الكتاب

بقي عمران مدة متأثراً مما اختبره في كهف الكبرياء الروحية. ولم يرجع الى ما كان عليه من السرور إلا بعد زمن طويل. وكان يسير بحذر وثبات متلفتاً حوله كيلا يفتك به العدو. وبذلك تخلص من صدمات كثيرة وربح معارك عديدة.

وبينما كان ذات يوماً سائراً وقد أعياه السفر التقى بسيدة ماسكه بيد ابنتها وكانت تدعي بلثيا "ابنة الرب"، واسم ابنتها ادو "الودودة" وقالت له بلثيا: هلم نترافق معاً مادمننا نسير في سبيل واحد.

نظر عمران الى المرأة فعلم في الحال أنها من أهل المدينة المنيرة لأن وجهها كان جميلاً ومناراً بأشعة لا تنبث إلا من هناك فسار معهما، ولم يمض إلا اليسير من الوقت حتى لحقوا بالمسافر البطيء وكان لا يزال سائراً بتأن وثبات. فقال له عمران: لقد وجدت بعد الاختبار إنني أنا الذي أضعت الوقت وليس أنت. فبعد ما فارقتك تصادمت مع أقوى عدوقابلته حتى الآن فقهرني تماماً.

فسأله الرجل بعطف شديد: وما اسمه؟ فأجاب: اسمه "الكبرياء الروحية". ولولم يمدني ملكي بالمعونة لكنت لا أزال أسير في كهفه. فقال الرجل: إنني أشعر بك أيها المسكين. فقد قابلت هذا العدو أنا أيضاً وأعرف طريقه.

فسألت ادو والدتها: هل التقينا نحن أيضاً بهذا العدو يا أماه؟

فأجابتها: ربما قد صادفناه ولم ننتبه إليه، أوبالحرى لم يهتم لقهرنا كما
اهتمّ لقهر خادمي الملك هذين الباسلين. على أنه قد يجربنا في كل آن، لذلك
يجب أن نحول نظرنا على الدوام الى المدينة المنيرة حيث يسكن ملكنا.
فقال عمران: يظهر يا سيدي أنك لم تصادفي عناء شديداً في طريقك.
أهذا هو سر في طمأنينتك؟

فالتفت المسافر البطيء بانزعاج وقال محذراً بليثا: إنني أشعر بقرب
العدومنا يا سيدي، وها هو مصغٍ لسماع جوابك.

فنظرت إليه نظرة الثناء وأجابت ببساطة: إننا قد اتصلنا بملكنا فجعل
سلاماً في قلوبنا. وفوق ذلك فإن لنا وعود كثيرة نعتمد عليها فتفرّح قلوبنا.

وقالت اذوالصغيرة: إننا كما تعلم حُذينا بجذاء السلام، و"حاذين
أنفسكم باستعداد إنجيل السلام"، وأنا أضعت حذائي ذات يوم فاضطرت الى
العودة الى الورااء للتفتيش عنه. ثم نظرت الى عمران بثقة وقالت: أتعرف أنه
يمكن أننا لا نضطر الى اجتياز النهر المظلم. إنني كثيراً ما أرتعب منه على
الرغم مني. على أنه قد يجوز أن الملك يأتي لمقابلتنا ويصعدنا الى المدينة بنفسه.

وقالت بليثا: نعم إننا بانتظاره وهذا مما يساعدنا على أن نكون فرحين
ومع أن الدليل يصرح بأنه لا بدّ من حدوث أمور كثيرة قبل مجيئه. إلا أنه
يجوز أن هذه تحدث في القريب العاجل.

وحيئذ سمعوا واحداً وراءهم يقول مغتاضاً: لا. لا أيتها السيدة، إنك
مخطئة في هذا. فالتفتوا الى خلف فرأوا رجلاً سميماً قصير القامة واقفاً يمسح
عرقه، إذ كان قد جدّ للحاق بهم، وكان موسوماً بسمه الملك وحاملاً الدليل
تحت ذراعه، وأما صوته فلم يكن صوت مسافر الى المدينة المنيرة. وقال
بخشونة: كلا: إنه لن يحدث أيّ حادث قبل مجيء الملك. وتراني دائماً مضطراً

الى المناقشة في هذا الموضوع. ثم خفض صوته وقال نادماً: اعذريني يا سيدي
فها أنا كعادتي أعترض وأغتاض وأجادل. غير أنني إذا رأيت أناساً لا يتفقون
معى كل الاتفاق في هذه الأمور لا أحمّل سماعهم. إن اسمي "شلسو" الذي
معناه "الطياشة". وإنى لسوء الحظ مستحق لهذا الاسم. ومع ذلك فأنا مخلص
ملكى. وإذا قال هذا نظر نحو المدينة المنيرة نظرة ظهر منها للحاضرين أن قلبه
كان متعلقاً بها.

ثم قال للمسافر البطيء: إنك يا صاح ستغمرنى بفضلك لو أخبرتنى عن
سبب فوزك على العدو. فإننى قد تتبعتك زمناً طويلاً أراقبك. وتراءى لى أن
لا شيء يشرك، وأنتك قلما تعثرت.

فبدت على وجه ذاك علامات الألم وجعل يتلفت حوله كمن ينتظر
رؤية عدو بجانبه وغطى أذنيه عفوفاً كي لا يسمع مديح هذا الغريب. ثم لفت
نظره بعزم ثابت الى جهة المدينة المنيرة وقال: مكتوب فى الدليل "قوتى فى
الضعف تكمل".

فتذكر عمران حينئذ القوانين التى قرأها فى كهف الكبرياء الروحية.
ولاحظ أن المسافر قاوم التجربة ولم يتكلم عن اختباره، بل عوض ذلك تكلم
عن عمل الملك.

وقال شلسو: أواه! إنك مُحق فى ما تقوله. فها أنا أسقط على الدوام
لأننى أنسى وعود ملكى وكتابه. فشكراً لك يا سيدي. ولكن انظروا! فما
هذا الجمع الذى أراه مقابلى؟ فإن كان هنالك مسكين يصطدم مع العدو
ينبغى أن أذهب لمساعدته. قال ذلك وجعل يجري نحو الجمهور.

وقالت بلثا: ما أشدّ غيرة هذا الإنسان فإن قلبه مملوء بالوداعة
والإحساس مع الآخرين.

أجابتها أدو: لكنه يا والدتي قد أظهر حدة لا ينبغي أن تظهر من جنود الملك العظيم.

فأومأت إليها أمها قائلة: أصمتي يا ابنتي، فها العدو قريب جداً وإنني سامعة وشوشته في صوتك. والملك يأمرنا أن لا ندين الآخرين.

ولما وصلوا الى الجمع المتجمهر رأوا لدهشتهم جماعة عظيمة من السائحين الموسومين بسمة الملك محيطين برجل كان يمزق صفحات الدليل واحدة واحدة ويطوحها خلفه وهو يقول: ليس هذا الكتاب كله صادقاً. وكثير من فصوله ليست سوى خرافات ورموز. وما تزعمون أنه نبوات ليس هو كذلك، فان الذين كتبوه أناس عاشوا بعد حدوث الأمور بزمن طويل لا الأشخاص المنسوب إليهم.

عند سماع هذا الكلام نظرت أدو الى أمها والدموع مائه عينيها وقالت: أتسمعين يا أماه ما يقوله هذا الإنسان عن كتابنا الدليل؟ وقبل أن تجيبها تلك بشيء سُمع شسلو يقول بصوت عال "لا تصدقوه فإنه كاذب. والكتاب صادق من أوله الى آخره".

وعلى أثر ذلك قامت ضجة وصرخ أحد المجتمعين قائلاً: لا تزعجوا الواعظ. فهو يقول بأنه درس الموضوع جيداً وأنه أيضاً مسافر الى المدينة المنيرة نظيراً. فإن كان عنده ما يعلمنا إياه فليفعل.

فنادي شلسوا قائلاً: بل هو كاذب فلا تصغوا إليه لأنه ذئب بثوب الحملان. فقال أحدهم: اطرردوا المتطفل من بيننا. فنحن نرغب في سماع الواعظ سواء كان ما يقوله صحيحاً أم كذباً.

وقالت بلشيا لأدو: لنذهب من هنا يا ابنتي لأن الاستماع لهذا الإنسان لا يفيدنا شيئاً.

ولكن ما معني كلامه يا أماه؟ وهل حقيقية يوجد من يشك في صحة الدليل؟ وإن كان هذا لا يصدق فكيف نتمكن من معرفة الطريق الى المدينة المنيرة؟ ثم قالت باكية: بل كيف نعرف أن هنالك مدينة منيرة للبحث عنها؟ أجابت الأم: إنه لسوء الحظ يوجد هذه الأيام أناس يمزقون الدليل قطعاً قطعاً غير مدركن الضرر الناتج عن ذلك. وظانين أن انتقاداتهم تقوّي إيمان الآخرين ولا تضعفه. أما العدو فإنه دائماً يترصد اجتماعات كهذه حتى متى وجدها يعمل بكل قواه ويزرع بذور الشك في أفكار الناس. على أن هذه المقاومة للدليل برهان على صحته. فالعدو يعلم أنه مادام لنا هذا الكتاب ومادمننا نؤمن به ونحبه ونتبعه، نستدل بواسطته على الطريق الى المدينة المنيرة. وأما أنا فإنني لم أفشل في أقواله كلّ حياتي فهو صحيح كله. وقد صدق هذا الإنسان الصالح فيما قاله. لكن حبذا لو كان يتكلم بأكثر رزانة وأقل حماقة، إلا أنه على ما يظهر غير قادر على المناقشة، وقلبه خير من رأسه.

فمسحت أدو الدموع من عينيها وقالت: إنه أرعيني جداً يا والدتي. وقد رأيت الكثيرين يسخرون منه. فهل هو حقيقي مسافر الى المدينة المنيرة؟ فإنه يختلف كل الاختلاف عن عمران وعن ذلك الرجل الصالح الذي كان يسير معنا.

الأم: إنه يحب الملك يا ابنتي وهذا ما يجعله أحياناً كثيرة يتحمس للكلام عندما يكون أفضل أن يلزم السكوت. غير أن الملك قادر على إصلاح ما هو باطل فيه. وأما أنا فإنني أفضل حماسة القلب على حماسة الرأس.

وسألت أدو فجأة: أين عمران؟ ولم تكن تعرف أنه تأخر لسماع الواعظ. وكان حينئذ مقبلاً نحوهما يفكر عميقاً وعيناه شاخصتين الى الأرض، وقد ارتخت منطقتة على حقويه. ولما وصل إليهما ساروا معاً بضع ثوان

صامتين. ولم يلاحظوا أن المسافر البطيء سبقهم مسافة طويلة. "وكان ذلك لأنه لم يتأخر بين الجماهير لسماع الواعظ بل واظب على السير بثبات". ولما لحقوا به بعد مدة سأله عمران: أسمعت ما قاله الخطيب؟

أجاب: إنني لما علمت موضوع كلامه واصلت السير ولم أقف لسماعه وذلك لأنني لم أشرع في السفر إلا وقد اقتنعت أن الدليل رسالة ملك المدينة المنيرة. وعليه فلا يجوز أن يكون فيه خرافة أو تزوير. بعد أن ساروا مسافة رأوا إنساناً جالساً يئن على جانب الطريق ورأسه مخبئ بين يديه.

فسألته بليثا: ما الذي اعتراك أيها الصديق؟ فاستمر في أنينه ولم يرفع رأسه.

فقال المسافر البطيء: لا شك في انه قد تصادم الآن مع العدو. وقال عمران: انظروا إليه فإنه مجرح وهو غير منتبه الى جراحة، لأن آلام نفسه أشد من آلام جسده.

فقال الرجل متنهداً: إن جروحي تؤلمني جداً حتى لا أستطيع رفع رأسي. ولقد قهرني العدو وها أنا في أسافل جهنم.

فقالت أدو بعطف: يا له من مسكين! فحبذا لو قدرت على إسعافه. فألح الرجل على بليثا قائلاً: انطلقني من هنا مع ابنتك فإنني لست أهلاً لرفقتهم. وأنت أيضاً أيها الشاب اتركني. على أنني أرجو أن هذا الصديق وحده يبقى معي مدة قصيرة لأطلععه على مصيبتى.

فلبوا طلبه مكرهين على تركه في تلك الحالة المؤلمة. ولما جلس المسافر البطيء بجانبه قال: إنني يا صديقي قد أضعت دليلي وسيفي، وسلبني العدو سائر سلاحى قطعة قطعة. فغدوت مقطوع الرجاء.

— ومتى هاجمك العدو؟

— أو اه! إنها لقصة مؤلمة. فإني في طريقي قابلت إنساناً في شدة عظمة وقد ضايق "الشك" ذلك العدو القوي. وكان هؤلاء الذين يحسبون أنهم يفيدون الآخرين بتمزيق كتبهم قد قطعوا دليله قطعاً قطعاً وطرحوها جانباً. فصرفت ساعات أكافح العدو بجانبه دون أن أستغيث بالملك. ولم أحذر لنفسي ظاناً أنني جندي قوي باسل لا يستطيع أحد على قهره وناسياً ضعفي وخطيئي. وفيما أنا أتكلم وإذا بالعدو يقبض عليّ فجأة ويسلبني الكتاب والسيف قبل أن أشعر به. ولقد لطمني لطمه ظننتها لأول وهلة قاضية عليّ. فالرجاء والمحبة والفرح قد برحت قلبي، وأنا في قبضة اليأس وعازم على اختصار الطريق الى النهر المظلم كي أنجو من هذه المشقة ولا أشك في ملكي ومدينته.

وحينئذ وقف المسافر البطيء وشخص بنظره الى المدينة المنيرة وصلّى ثم شدّ منطقتة شداً محكماً. وقال أنا أحارب العدو معك يا صديقي.

فصرخ هذا قائلاً: كلا فإنك لن تفعل ذلك أبداً. لئلا تكون عاقبتك كعاقبتى وقهرك العدو كما قهرني. وأرجوك أن لا تهتم بي ولا تؤخر سفرك من أجلّي. فأنت سعيد في إيمانك بالمدينة المنيرة وملكها. والدليل قريب من قلبك وسيفك في يدك. فلا أرغب في أن أكون واسطة لإيقاعك في قبضة الشك.

فأشرق وجه المسافر ولمعت خوذته بنور المدينة المنيرة، فقال: عندما يدعوني ملكي الى القتال هو يعطيني الغلبة بينما أنا أحارب راعياً على ركبتي وإذا تكلم ركع. فدنا منه العدو المتخفي وألقى عليه مطرقة الحرب بكل عزمه فردها عنه بسيفه. وبعد ذلك ابتدأت بينهما معركة شديدة دامت عدة ساعات وكان العرق يسيل من جبينهما ودخل عليهما الليل وهما في تلك

الحالة. وأخيراً تنفس المسافر الصعداء وقال لرفيقه: حارب أيها الإنسان، حارب فان الذين معنا أكثر من الذين معهم، وها أنا أرى أشعة الفجر.

وعندئذ بدا نور ضئيل واستقر على ترسه، فرأى الجريح على ضوء هذا النور كتابه وسيفه الذين أضعهما فمد يده وتناولهما. ثم ألبسته أيدٍ خفية سلاحه قطعة قطعة، فتقوي على النضال وأخذ يستعمل سيفه بمهارة عظيمة. ولما رأى العدو ذينك الجنديين يحاربان على ركبهما أخذ يتردد في هجماته شيئاً فشيئاً، وأخيراً انسحب عنهما مقهوراً.

حينئذ نهض المسافر شاحب الوجه مضنيّ وصرخ محولاً نظره الى المدينة المنيرة: "مبارك الملك!". وإذ مد يده وساعد الجندي المنتصر على القيام، أضاء نور المدينة وجهه وأبرق ترسه ودرعه كما لم يُبرق قبلاً. وردد الجندي بعده "مبارك الملك!". "مبارك الملك الذي يعلم يدي القتال وأصابعي الحرب".

"لولا الرب الذي كان لنا... إذاً لابتلعونا أحياء... ولكن مبارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لأسنانهم". وقال المسافر: "انفلتت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر ونحن انفلتنا. عوناً باسم الرب صانع السموات والأرض".

ثم تصافح الرجلان وسأل ذلك الذي شفيت جراحه: ما اسمك يا صديقي؟ فإنني سأذكرك دائماً بالحبّة والشكر.

أجاب: إن اسمي هيمان "الإيمان" — وما اسمك أنت؟

فقال اسمي يوعزر — "من معونته الرب" — لكنني لسوء الحظ متسرع جداً وأنسى تلك الحقيقة التي ذكرتها أنت: أن العدو هذا يهاجم الركبتين، حتى إذا ما تمكن من جرحهما وثق من نيل الغلبة. وقد رأيتك تحارب راكعاً فامتثلت بك. فمبارك الرب من أجل صداقتك ومعونتك لي يا هيمان.

ولما انطلق هذا الرفيق الجديد تطَّع هيمان نحو المدينة المنيرة وصاح
مبتهجاً: "رأس كلامك حق، والى الدهر كل أحكام عدلك".

الفصل السابع

البلاد الخلابة

بعد ذلك الحادث ببضعة أيام وجد عمران نفسه في سبيل غير السبيل الذي سلكت فيه بليثا وابنتها، فتأسف جداً لذلك إذ كان لرفقتها وقع عظيم في نفسه.

وبكت أدو أيضاً عندما رآته يتحول عنهما لأنه كان لها كأخ. ولبكائها هذا اتخذ التذمر، ذلك العدو الصغير، الفرصة التي كان يتوقعها لإزعاجهما، وغلبها في الأيام التالية في عدة معارك.

ولاحظت أمها أنها لم تعد تستعمل سيفها كما يجب، وأن ترسها قد كمد لونه لعدم عنايتها به، فحزنت واغتمت لذلك جداً وقالت لها: ألا تظنين يا ابنتي أن الملك هو الذي يرسم السبيل لجنوده؟ إنني أخشى أنك تشكين في هذا الأمر. فإن لكل سائح سبيلاً خاصاً ينبغي أن يسلكه ولو أن الجميع يقصدون جهة واحدة. وكثيراً ما يفترق الأصدقاء عن بعضهم زمناً ثم يعودون فيتمتعون بالاجتماع معاً على حين غرة.

فتنهدت أدو وقالت: إن الطريق بدون عمران مملة جداً.

بأثيا: أن التذمر هو الذي يتكلم فيك يا ادو. فانتهي لئلا يأتي رفيقه الأقوي منه لمساعدته. فإن سمحت لذلك بالتسلط عليك يكون لك سبب كدر مستمر وتصبحين غير قادرة على التخلص منه إلا ببذل أقصى قواك.

أدو: وما اسم رفيقه يا أماه؟

بليثا: اسمه الغم. وهو يقترب إلينا في بداية الأمر بالبكاء والتهنؤ ويستميلنا إلى الإشفاق عليه. فإن قبلناه ضيفاً عندنا يوماً واحداً يأخذ بتقييدنا بقيود خفية حتى نجد أنفسنا فجأة في قبضته.

ادو: وهل أزعجك هذا العدو يوماً يا والدتي؟

الأم: نعم أزعجني، وكان ذلك أن هاجمني بعد أن ذهب والدك الى المدينة المنيرة بقليل. أنا أحذرك لأنني اعلم طريقه. فلا تحادثيه أبداً ولا تدعيه يستولي عليك بل اصرخي الى الملك واشهري سيفك وحرابه حال وقوع نظرك عليه.

ادو: وأي علاقة للغم مع التذمر يا أماه.

الأم: التذمر أحد جواسيسه. وهو يتجول لتفقد أحوال البلاد، وحين يجد فرصة مناسبة يعد له الطريق لذلك. أولم تلاحظي كيف استولي الغم على الرجل الجريح الذي قابلناه. فهو دائماً يلازم هؤلاء الذين يراهم قد قهروا في القتال. ومع أنني لا أعرف من هو العدو الذي جرح ذلك الإنسان، إنما أعلم أن الغم كان واقفاً فوق رأسه ينتظر فرصة لقتله بسهامه المسمومة.

ادو: إنني يا والدتي لا أريد أن تكون لي علاقة معه. وسأصلي من أجل عمران بدلاً من التفكير فيه كثيراً، وبذلك سيفرح قلبي.

وكان عمران حينئذ في حاجة شديدة الى صلوات صديقه الصغيرة وأما لأنه كان يسير في سبيل خطير جداً. ومما زاده خطراً أنه كان معظم الوقت كان يفكر في بعض ما قاله الواعظ للجماهير، غير عالم أن الشك كان يرافقه متخفياً ينبهه الى صعوبات في الدليل، ويحثه على البحث فيها مع كل من رآه.

ولما كان عمران في طبيعته مستسلماً للتخيل، اهتم جداً للأمور التي تكلم عنها الواعظ، ولم يعرف أن الازدراء ببعض أجزاء الكتاب مما يضعفه ويقلل فائدته كدليل. وكذلك أيضاً فإنه لم يعلم أنه والسيف مقترنان بحيث أن الشك في أحدهما يقضي على الآخر. ونسي تحذير النذير له بأن يلتصق

بالكتاب ولا يضيعه كيلا يخسر في القتال ويضيع. فصار يصغي الى آراء الناس أمثاله والى وشوشة العدو عوضاً عن البحث فيه عن حقائق تقوية روحياً وتساعدته في حالة الهجوم. وكذلك أيضاً لم يعد يصرخ الى الملك من أجل المعونة، ولم يشهر الحرب على العدو علانية كما كان يفعل هيمان.

وكان سبيله يؤدي الى بلاد أخشاف "الخلابة". وهي بلاد كثيرة الأخطار لمن لا يحذر لنفسه. وأما السائحون الذين يجتازونها بأسلحة لامعة وسيوفهم في أيديهم فلا يمسه فيها ضرر. وكذلك أيضاً الذين يطلبون حارساً فإنه يُرسل إليهم حارس غير منظور فيجيزهم النهر الى الشاطئ الثاني بسلام.

وأما عمران فلم يرافقه حارس بل رافقه الشك متخفياً. فاقترب من البلاد الخلابة بلا خوف أو تهيب. ولما دخلها سرّ لكل ما رآه فيها وقال في نفسه: إن اسم هذه البلاد يليق بها. فيا لها من بلاد خلابة. فالزهور ذات الرائحة الذكية والألوان البهية المتعددة تكسو حقولها الخضراء. وعليها مكسو بالقمر. وأشجارها تظلل المسافر من حر الشمس. وينابيعها وأنهارها ترطب الهواء الساخن.

وكان أول من قابله هناك إنسان ذو شخصية بارزة يدعي "الذات"، فهذا اقترب منه بوجه باش ويدين مبسوطتين. فنسي عمران أنه في بلاد العدو وفرح جداً برفقته. لاسيما وأنه كان يتكلم كثيراً عن نفسه ويستطيع أن يخبره عن جمال البلاد الخلابة وعن عادات أهلها.

ولما رآه "الذات" مواظباً على السير في السبيل أمامه قال له: قف واسترح قليلاً على الشاطئ الطحلي. فإنك معي من السفر.

فنظر عمران باشتياق الى الشاطئ الأخضر الرطب متردداً. وإذا ذلك رنت في أذنيه هذه الكلمات.

مسافة قصيرة ابتدأت خطواته تضعف من تأثير الثمرة الذي نشطها في بادئ الأمر. وتخيل حينئذ أنه سمع صوتاً يرتل على بعد منه.

صَلِّ واسهر إنما النصر منوط بالسهر
وأطلب العون تَنَلُهُ صل واسهر

أما "الذات" فاستمر يسير بجانبه وقد استأنس عمران برفقته. وكانا يتحدثان معاً ويتناقشان في أمور كثيرة. وكان عمران يفوز عليه في الكلام أحياناً، ولكن في الغالب كان "الذات" يتكلم بقوة وسلطان فيحول أفكاره حتى يرى الأمور كما يراها هو ويسلك بموجبها. وكانت المدينة إذ ذاك تتسّتر شيئاً فشيئاً عن عينه. ولم يعد يعتني بسلاحه. وعلا الصداً سيفه.

وحدث ذات يوم بعد مناقشة طويلة مع "الذات" أن عمران سمع زعقه متألم. فالتفت وإذ في معبر غابة مقطوعة أشجارها شيخ مسنّ منكب على وجهه، وقد علقته رجله بجزع والتوي كاحله حتى أصبح لا يستطيع القيام فمال للذهاب إليه ومساعدته، فسحبه "الذات" من كفه قائلاً:

لا تضع وقتك بمساعدة إنسان كبير قادر على الاعتناء بنفسه. فقد كان يجب أن يتنبه وألاً يعثر. وأما أنت فكفكك الاهتمام بأمورك. وعدا ذلك فلماذا لا تتفرج على كل ما يمكنك رؤيته وتتمتع بالأمور ما استطعت مادمت في مدينة اخشاف. وأصغ. أسمع أنت صوت الموسيقى؟

ولما أصغى عمران سمع صوت موسيقى فاتنة جداً. ورفع نظره ورأى جماعة من الرجال والفتيات قادمين نحوه سائرين في سبيل متسع تنمو على جانبية شجيرات مزهرة. وكانوا يعزفون على بعض آلات الموسيقى الهوائية عزفاً لم يسمع نظيرة كل حياته.

وقال له " الذات ": أجلس هنا واستمع. فأطاع كما يطيع العبد سيده
وجلس تحت الأشجار الخضراء وأصغى الى الموسيقى الفاتنة الى سلبت عقله
وأوهنت عزائمه، ونسي أنه قد تحول عن الطريق المؤدية الى حيث كان الرجل
المسكين. ولم يلاحظ أن المدينة المنيرة غابت عن نظره تماماً. فكاد ينسى السفر
إليها والحرب وأخطار الطريق. وأصبح لا يفكر إلا في الزهور والأثمار
والموسيقى وسكان مدينة " أخشاف " الجميلة.

وبينما كان "الذات" يصيح في أذنيه مائلاً أفكاره بالأحلام البهجة كان
الشك الشنيع يتخطر متكرراً بجانبه. ويرشقه من وقت الى آخر بسهامه. وكان
عمران قد انتزع خوذته وترسه فوجدت تلك السهام طريقها بسهولة،
وخرقت دماغه دون أن ينتبه إليها مع أن بعضها هز جسمه لحدته. وإذا كان
منغمساً في الملدات حوله لم يفطن لتقلد سلاحه ولمقاومتها به. بل كان عوض
عن ذلك يلتفت الى "الذات"، فيخترع له ذاك وسائل تنسيه الألم الناتج عنها.
ومرّ به ذات يوم شسلو فلما رآه في تلك الحالة زعق بصوته الخشن: ما
الذي أراه هنا؟ أمستريح أنت بين الورود؟ فما سمة السائح الى المدينة المنيرة
كادت تمنحي عن جبينك. قم أيها الفتى. فليس هذا المكان بمقرّك.

فأجاب الخلق السيئ في عمران: ليست أموري من خصائصك. وماذا
يعنيك لو اخترت البلاد الخلافة للراحة فيها أثناء سفري.
شسلو: إن أمورك تمني جداً لأننا أخوان ولا أستطيع رؤية أخي فريسة
للعدو دون أن أبذل جهدي لإنقاذه. وإنك شاب صغير لا تعرف أخطار البلاد
التي تسير فيها.

عمران: إنني أتلدذ فيها مدة قصيرة فقط. فأرجوك أن تتركني.

شسلو: لا أستطيع أن أترك أخواً في قبضة العدو. ولم أفعل ذلك طول حياتي.

عمران: وما هو عيب هذه البلاد؟

شسلو: ما هو عيبها! إنها شرك للموت. وقد حذرت من أخطارها قبل عبورها. إنما أخبرني يا بني: هل أكلت من ثمرها؟

عمران: نعم إنني أكلت منه وكان طعمه في بادئ الأمر لذيذاً جداً لكنه ترك في فمي نكهة كريهة.

شسلو: أواه هذه هي خصائصه.

عمران: إنني حتى الآن لا أستطيع أن أفهم سبب اهتمامك بي. وفوق كل هذا فإننا لسنا جميعاً جبله واحدة. وما يضرك قد لا يضرني. فلكل منا أن يحكم نفسه.

شسلو: بل ينبغي أن نحكم على أنفسنا بواسطة الدليل. وذاك يأمرنا أن لا نتكل على فهمنا إذ يقول: "من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط". وأنت يا صديقي في طريق ذات أخطار عظيمة.

شعر عمران حينئذ أن شسلو كان مهتماً به حقاً. لكن إذ كان لا يميل إلى الإصغاء إليه، وكان ذلك يتكلم باهتياج وسلطان، اغتاض من لهجته وأجابه ببرودة: أشكرك يا سيدي لاهتمامك بي. ولكنني حقيقة أشعر أن هذا الأمر من خصائصي وحدي. ثم قام لينطلق من المكان فلم يمكنه نقل رجله لأنها كانت معرقة. فاغتاض جداً لكنه لم يطالع شسلو على حالته. وذاك أيضاً لم ينتبه إليها بل انصرف بتوان وقلب ممتلى شفقة على الشاب. واضطرب في داخله لكونه أرغم على تركه في تلك الحالة الخطيرة، وجعل يقول في نفسه متنهداً:

أواه ما أضعفني! فلو كان هيمان في مكاني لأصغي إليه الفتي لأنه رزين في كلامه، وأما أنا فإنني كعادي لا أنفك عن تحذير الآخرين من الخطأ والسقطات التي هي سقطاتي أنا أيضاً. ولكن شكراً لله. فإنني في هذه المرة تغلبت على حدة الطبع. نعم، إنني ناقص الحكمة، غير أن الملك الذي يعرف ذلك سيرسل من هو أحكم مني لمساعدة هذا الشاب المسكين.

وبعد انصراف شسلو بقليل حاول عمران سحب رجله وقد ظنّها متعركة في العشب الطويل فلم يستطع. فنظر وإذ بسلسلة ذهبية دقيقة جداً ملتفة على كاحله. فحسب أنه يقدر على كسرها، وبعد جهاد عظيم وجد الأمر مستحيلاً. وبقيت تلك السلسلة الدقيقة ممتدة بين الحشيش تتلألأ في نور الشمس.

غضب عمران من أن شيئاً صغيراً كهذه منعة عن السير وأخذ يلتفت حوله لعل هناك من يأتي الى معونته فلم يري أحداً. ولم يكن "الذات" بعيداً عنه ولكنه وقف يضحك لانكساره دون أن يحاول إسعافه.

وندم عمران لعدم إصغائه الى نصيحة شسلو الصالحة، الذي كان دون شك يبذل قواه لفكّه. ولم يفطن لسيفه الذي كان مغطي بالعشب الطويل بجانبه، بل عاد يسحب ويشد السلسلة آملاً أن يكسرها. وبعد عناء شديد يئس من الأمر فاضجع على الأرض وصار ينتظر لعله يمر من المكان من يستعين به.

وحينئذ فطن للدليل فأخرجه من جيبه وفتحته، وإذ ببعض صفحاته مفقودة، فاضطرب جداً وعرف أنها سقطت على الطريق. وكان قد رآها تحل بينما كان في المرج يستمع الى الواعظ. وازداد اضطرابه عندما وقع نظره على كلمات تثبت له صحة كلام شسلو: "توجد طريق تظهر للإنسان

مستقيمة وعاقبتها طرق الموت. أيضاً في الضحك يكتب القلب وعاقبة الفرح
حزن... الغبي يصدق كل كلمة والذكي ينتبه الى خطواته. "

وفيما هو يقرأ الدليل بقلب حزين منكسر متندماً على عدم طاعته
للملك الذي أمره أن "لا يحيد يمنه أو يسره" شعر بوجود إنسان قريب منه.
فالتفت بسرعة وإذا بالشك أمامه، وكان قد تبعه متستراً في العشب.

وقال له ذاك: إنني أري أنك تطالع الدليل، وقد ظننتك عدلت عن هذا
الأمر منذ زمن طويل. فهل نسيت قول الواعظ. أن الكثير من فصوله هو
خرافات ورموز فقط. وما يدريك أن المدينة المنيرة التي يدعي الدليل أنه
يهديك إليها ليست خرافة أيضاً؟

فصاح به عمران: انطلق من هنا. أولاً يكفيك أنك سببت لي شقاءً
عظيماً؟ إنني آمرك أن تذهب.

الشك: وما الذي طراً عليك فجأة؟ فلقد ظننتك في هذا المكان لكونك
غير واثق تماماً من صحة الدليل، ولأنك تشعر بأنه لا حاجة لمراقبة كل
خطواتك كل المراقبة مادمت تشك فيه، بأنه يجوز لك على الأقل الراحة زماناً
أثناء سفرك الى أن تتأكد من صحته.

فقال عمران بمرارة: اذهب عني فإنني لا أرغب في رفقتك. وإن اقتربت
مني أدقتك طعم سيفي.

فضحك العدو وقال: إن سيفك يعلوه الصداً ولا أظنك تذكر أيضاً
طريقة استعماله. فتعال الآن لنجلس معاً ونتباحث الموضوع.

وأما عمران الذي فهم حينئذ أن صلته بأعداء الملك جهل عظيم، فقد
استل سيفه الصّدي من غمده وأشهره على الشك بمهارة ففرّ من أمامه الى
حين. وعند غلبته على هذا العدو شعر بعظم خطيئته واستولي عليه رعب

شديد. وأخذت تجول في ذهنه هذه الأفكار: إذا كان الدليل هو تعاليم الملك العظيم وكان صادقاً كله. وأن الملك يعرف جميع أعمال خدامه وأفكارهم كما يقول الكتاب، فيا لها من حالة سيئة قد صرت إليها.

فمنذ ذلك اليوم الذي وقف يصغي فيه الى ذلك الإنسان الذي تكلم عن عدم صحة الدليل، جعل الإهمال يستولي عليه شيئاً فشيئاً وصار يتكلم بطيش مع كل من يراه عن الصعوبات والتجارب التي تتعرض له عوضاً عن الاستعانة بالملك للتغلب عليها. وكانت الأحاديث والتخيلات التي كان يغوص فيها تلهيه عن قراءة الدليل لمعرفة الحقيقة، وتشوقه لسماع أفكار الناس في الموضوع. فنتج عن ذلك أنه تشرب تلك الأفكار دون معرفة وأهمل مسيره حتى وصل الى حالته الحاضرة. وأدي به هذا الإهمال الى التأخر في تلك البلاد الجميلة والتمتع بملذاتها حاسباً أن المدينة المنيرة ليست سوي حلم عابر.

وأما الآن وقد طرد الشك وأدرك حقيقة حالته، فجعل يسائل نفسه يائساً: أيمن أن تكون رحمة الملك العظيم بهذا المقدار حتى يتحنن على سائح تائه نظيري. وحسد شسلو لثقتة الوطيدة بمحبة الملك ولتكريسه نفسه له علناً بالرغم من طيشه وعسر طبيعته. وفهم أن ذاك إنما اهتم به ودعاه أخاً لكونه من جنود الملك.

ولم يتجاسر عمران على الدعاء الى الملك لأنه شعر أنه بعيداً جداً عنه، فجعل يضرب على صدره قائلاً "اللهم ارحمني أنا الخاطيء" وإذ كانت السلسلة تضغط على رجله وتؤلمه وهو لا يقوي على التخلص منها، أدرك مقدراً عجزه فصرخ ثانية: "ارحمني يا رب ارحمني".

وفيما هو في تلك الضيقة الشديدة رأي هيمان مقبلاً نحوه. وكان هذا يسير بجد واهتمام عظيمين، وعيناه ناظرتان الى فوق وهو لا يلتفت يمنة أو

يسرة عملاً بأمر الملك القائل: لتنظر عينك الى قدامك وأجفانك الى أمامك مستقيماً. وكان النور المنبعث من الملك يضيء جبينه. فتذكر عمران حينئذ المدينة المنيرة التي لم يذكرها منذ افتراقه عن بلثيا وادو، فتاقت نفسه إليها ودعا من ذكره بها هيمان! هيمان!

وكان هيمان حينئذ موجهاً أفكاره وبصره الى ملكه خشية أن تسلب عقله البلاد الفاتنة. فعند سماعه صوتاً يدعوهُ أخذ يلتفت حوله كمستيقظ من حلم فرأى عمران مطروحاً عند قدميه. فعرفه. وكان قد قابلهُ في الطريق مراراً.

وقال له ذاك وقد فارقتهُ كبريائه تماماً: ساعدني أيها الصديق لأنني في ضيقة عظيمة وأخشى أن الملك لا يغفر لي. وانظر فيها أنا معرقل في هذه البلاد الفاتنة بلاد الموت، ولا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة.

فأمسك هيمان السلسلة وفكها وهو ينظر الى المدينة المنيرة واعتق الفتي من رباطه. ثم قال وهو يسير الى الأمام: تعال أيها الفتي فإنه لا ينبغي أن نبقى هنا. ومن تأخر في هذه البلاد أصيب بمرض النوم الذي إذا ما تسلط على إنسان صعبت عليه مقاومته. فسرّ معي ودع عينك "تنظران الى قدامك وأجفانك الى أمامك مستقيماً"، وانظر الى الحشيش الطويل المتمايل حولنا فلأعداء مختبئون فيه وهم يترقبون فرصة لكي يرموك بسهامهم المسمومة. فإن توقفت عن المسير هلكت لا محالة. ولكن إذا ناجيت ملكك عند مرور بهم فإنهم لا يجسرون على مسك.

فسأله عمران متأوهاً: وهل لي ملك بعد؟

أجاب هيمان: وهل نستطيع أن نشك في رحمة من مات من أجلنا؟ أولم يقل "الذي يأتي اليّ لا أطرحه خارجاً"؟

وقال عمران: نعم إني قد صرخت الى الملك من أجل رحمته. ومنذ
حللت قيودي ابتدأت أشعر أنك بُعثتَ استجابة لدعائي.
فقال هيمان: حقاً لقد سمع الملك دعاءك.

الفصل الثامن

الضلال عن السبيل

مرت بلثيا وإدو أيضاً في سفرهما على حدود البلاد الخلابة. ونظرت إدو مستطلعة الى غابتها الخضراء ففتنت بما رآته فيها وقالت: أنظري يا أماه الى الزهور الجميلة في هذه الأزقة. إنني لم أري في حياتي زهور بحجمها. أويجوز لي اقتطاف بعضها؟

أجابتها: لا يمكنك فعل ذلك يا بني دون أن تحيدي عن السبيل. وسبيلك هو خارج حد البلاد فقط، فإن ملت عنه تسلكين طريقاً لم يرسمها لك الملك.

فنظرت إدو بشهوة الى الزهور وقالت: إنني باقتطاعها لا أحميد عن السبيل إلا مسافة قصيرة جداً. فلماذا أضيع هذه الفرصة ولا ألتقطها؟

سكتت بلثيا وواصلت السير الى الأمام أما إدو فأخذت تتأخر وراءها. ورأت على بعد مترين منها زهور لم تكن تحلم برؤيتها. وكانت أزهارها الارجوانية والحمراء مبعثرة على وجه العشب. وعلى مسافة من هذه رأت زهوراً زرقاء فاتحة اجتذبتها أكثر من الأولى. فوقفت تقول في نفسها مترددة: إنني أستطيع أن أركض والتقط بعضها قبل وصول والدتي الى منعطف الطريق. ولما كانت التجربة قوية جداً خضعت لها الابنة وتحولت عن سبيلها على الزقاق الأخضر المؤدي الى الغابة واقتطفت منه زهوراً ملء يديها. ثم جلست على العشب تتزين بها، فغرزت بعضها في حزامها والبعض في شعرها. وحينئذ سمعت صوتاً يقول متنهداً: ما أجملك!

فالتفتت وإذا بسيدة ظريفة بثياب جميلة بجانبها. فذهلت لرؤيتها وتذكرت بأنها قد مالت عن الطريق. فقامت عن العشب ولكن لم تبرح من

مكانها لأنها أعجبت بشكل السيدة وسرّت بكلماتها المملقة. ثم قالت: إن هذه زهور جميلة جداً.

أجابت السيدة وكانت تدعي الغرور: نعم لكنها تزداد جمالاً متى تزينت بها ابنة ظريفة. فياليت أهل المدينة الفتانه يرونك.

فسألتهادؤ: وهل يوجد أناس كثيرون هنا؟

الغرور: نعم أنهم كثيرون جداً وهم فرحون من الصباح الى المساء. لكن ألا تحبين أن تنظري هيئتك؟ سيري معي قليلاً فأريك صورة جميلة.

فقالته ابنة بمرارة: إنني لا أتجاسر على ذلك خشية من الضلال عن الطريق. وكانت في قلبها تتوق الى الذهاب معها.

الغرور: أتخافين من الضلال عن الطريق؟ فالي أين تقصدين؟

إدؤ: إنني على الطريق الى المدينة المنيرة وليس لي وقت أضيعه.

الغرور: إن كنت تريدين رؤية نفسك فإنك تقدرين أن تفعلي ذلك دون أن تضعي زمناً طويلاً. وهذه الزهور الزرقاء تلائم شعرك تماماً. فتقدمي معي بضع خطوات فقط.

خضعت إدؤ للتجربة وتبعته مرشدتها. وقادتها تلك الى حافة بركه وأمرتها أن تركع وتمتع نظرها. ففعلت. وكان خيال وجهها في البركة جميلاً جداً ففتنت بمرآه وأخذت في الحال ترتب الزهور في رأسها على نسق جديد. وقالت رفيقتها. يؤسفني جداً أنه ليس هنا من يراك.

فوقفت ادؤ متوقدة الوجنتين مسرورة بما سمعته وسألتهها: أظن أنهم

يجبون أن يروني؟

الغرور: لاشك في أنهم يجبون ذلك. لكنني أخشي أنهم يخافون منك إذا

رأوا سلاحك. فلماذا تحمليه؟

ادو: ذلك لأنني مسافرة الى المدينة المنيرة. وعلى الطريق إليها أعداء
كثيرون ينبغي أن أحاربهم. فهل من أعداء هنا أيضاً؟

الغرور: كلا فإن الجميع هنا أصدقاء. وإن سمعوا كلامك يهزأون بك.
فإن كنت حقيقة تحبين التعرف بهم، عليك أن تخفي سيفك.

فنظرت إدو الى الأرض متفكرة. ثم قالت إنني لا أحب أن أنزعه عني.
لكن حقاً يلوح لي أن السلام سائد في هذا المكان. فإن كان الجميع بشوشين
وطيبين نظيرك، فلا حاجة لي إليه ولربما استطعت إخفاءه تحت ثوبي.

الغرور: وماذا تعملين بخوذتك فإن هيأتك بها وبسائر سلاحك غريبة
جداً. إنني قد شاهدت بعض السائحين يسرون في المدينة الفاتنة بسلاحهم
الكامل فضحك أناس منهم وكدروا عيشهم. وأما هم فكانوا لا يلتفتون يميناً
أو شمالاً مع أن البعض كانوا يوقعون على أحسن آلات الموسيقى لاجتذابهم،
وكذلك أيضاً فإنهم لم يقطفوا ثمرة واحدة عن الشجر.

إدو: وهل يوجد موسيقى جميلة هنا؟

الغرور: معلوم أنه يوجد هنا موسيقى ورقص وألعاب كثيرة. وابنة جميلة
نظيرك يمكنها التمتع بأحسنها. فقط يا عزيزتي لا ينبغي أن تظهرى بسلاحك
هذا كله.

فقالت إدو وقد صممت على رؤية المدينة الفاتنة جيداً: إنني سأخفي
سيفي تحت ثوبي وأخبي بقية سلاحي في الحشيش المرتفع. ولا أظن أنني سأجد
صعوبة في وجوده ثانية. أليس كذلك؟

الغرور: لا أظن، ولا بد لك من تحبته إذا كنت حقيقة تريدين أن تمتعي
نفسك في المدينة الفاتنة، لأنه لا ينبغي أن تعرفي أحداً أنك سائحة الى المدينة
المنيرة.

بدأت على وجه إدو سحابة مظلمة لحظة ثم وقفت مصغية وقالت:
أتسمعين ذلك؟

الغرور: ماذا أسمع؟ إنني لا أسمع يا عزيزتي سوي نسيم الهواء بين
الشجر.

إدو: كأني سمعت صوت أمي. ثم تنفست الصعداء وقالت: لا أظن إنني
سأذهب معك. وإنني متأكدة من أن والدتي لا تشاء أن أخشي من الظهور أمام
الناس كسائحة.

الغرور: إنك ستعودين الى والدتك حالاً لأن هذا الدور الذي تمثليته لا
يدوم أكثر من ساعة. قالت الغرور هذا وهي تنسج إكليلاً جميلاً لرأس الابنة.
ولما أتمت كلامها وضعت بين خصل شعرها وأمرتها أن تنظر الى نفسها مرة
أخرى. ثم قالت بسرور انك ستفوزين تماماً في البلاد الفاتنة. فاطرحي عنك
هذه الوسوس وتمعني بما حولك. وعندئذ أمسكت يدها وسارت بها بعد أن
ساعدتها على تخيئة سلاحها في الحشيش وإخفاء سيفها تحت ثوبها.

وصرفت إدو مدة في البلاد الفاتنة وكادت تنسي أنها سائحة الى المدينة
المنيرة. وفي أثناء وجودها هناك أقبلت نحوها سيدة بثغر باسم فقالت لها
الغرور: هذه قريبتى واسمها الإعجاب بالنفس.

وكانت تشبه الغرور بلطف شكلها فلم يخطر في بال إدو أنهما عدوتان
وأنها كثيراً ما أغوتا أناساً للعدول عن السفر الى المدينة المنيرة بأقوالهما
الخداعة.

وسارت إدو مع هذه الرفيقة الجديدة الى ممر جميل في الغابة حيث كان
عدد من الشبان والفتيات يلعبون. وعند رؤيتهم إياها أحاطوا بها وقد أعجبوا
بجمالها. ودعوها للعب معهم فانضمت لهم بسرور. وتوقدت وجنتها من شدة

الفرح. فأحبوها جداً وأبدوا لها التفاتاً عظيماً. وجعلوا يمدحونها ويتبارون في إهدائها الأثمار الشهية والزهور الثمينة وفي اختيارها شريكه لهم أثناء اللعب. وهكذا مرت الساعات دون أن تشعر بها.

وكانت بين هؤلاء ابنة أكبر من إدو تدعي وداد كانت هيئتها تدل على أنها أكثر تفكراً وهدوءاً من سائر رفقاتها. فهذه أظهرت لها لطفاً شديداً كي لا تشعر بالوحدة بين رفقاء جدد. فمالت إليها إدو وقابلت لطفها بالمحبة والإخلاص.

مرت الساعات بسرعة وادو لا تلاحظ ذلك وتخيل لها أنها في حلم بهيج. ولما رأت الجميع يحبونها ومعجبين بها ابتدأت تشعر بأهمية في نفسها وحسبت أنها تمتاز عن رفيقاتها. وإذ كانت تسير كثيراً برفقة "الغرور" و"الإعجاب بالنفس" تتبادل معهما الحديث، أخذ شكلها يتغير شيئاً فشيئاً.

وفيما هي جالسة ذات يوم مع وداد للاستراحة من اللعب تشجعت وأخبرتها أنها سائحة الى المدينة المنيرة. فنظرت إليها تلك نظرة احتقار وقالت: لقد سمعت أنك سائحة إلا إنني لم اصدق ذلك. فإنك لا تشبهين سائر السائحين الذين أراهم.

فقالت ادو بقلق: وكيف أختلف عنهم؟

وداد: إن جميع السائحين الذين يمرون في بلادنا الفاتنة يتقلدون سلاحاً وأما أنت فلا تحملين شيئاً.

ادو: بلى. عندي سلاح. انظري فيها سيفي هنا.

وداد: أري انك نجحت تماماً في إخفائه.

ادو: إن الصديقة التي قادتني إليكم قالت إنني لا يمكنني مقابلتكم

بسلاحي.

وداد: وهل خفت من الضحك عليك؟

علا الاحمرار وجنتي ادو عند سماعها لهجة الازدراء في صوت وداد
وقالت: لكنني كنت عازمة على أن أريكم إياه قبل ذهابي من عندكم.

فنظرت وداد لها نظرة ساخرة وقالت: وأما أنا فإنني احترم جداً
السائحين الذين لا يخجلون بملكهم وبلادهم.

ادو: اخشي إذا أنك تحتقريني وأنا لا أتحمّل ذلك.

وداد: بل لا تفكري في الأمر يا عزيزتي. وأن فيك ما يعجبني على
الرغم من كونك ناقصة الشجاعة. وانظري! فها رفاقنا قد عادوا الى اللعب
وهم يفتشون عنك.

ذهبت ادو الى اللعب بسرور ونسيت الى حين ذلك الشعور الذي
ولدته فيها نظرة وداد الساخرة.

وحدث بعد مدة أن انضم إليهم ابنه تماثل ادو في جمالها وتفوقها بقوة
جاذبيتها. فتوقف الجميع عن اللعب فجأة. ثم أخذوا ينسحبون عن ادو واحداً
واحداً ويحتاطون بها.

وإذ جلست ادو على العشب خائبة تراقبهم، سمعت صوت خفيفاً
يهمس في أذنها: "إن عملهم هذا مخالف للحق. فانك تفوقين هذه الابنة جمالاً".
فالتفت مذهولة وإذ برجل مستند الى شجرة يراقب الأولاد المحيطين بالابنة
الجديدة والنار تشتعل في عينيه. فنفرت منه لشناعة شكله ولم تعبأ به في بادئ
الأمر. لكن لما سمعته يقول أنهم حقيقة متلونون، فلقد أحبوك وعززوك حتى
مجيئها، تحول فشلها الى غيظ ونظرت إليه حاسبة أنه يرثي لحالتها، فالتقط
وجهها شيئاً من كآبة شكله. وقالت له: إنني أعاف الجلوس هنا وحدي بينما
أري الجميع يلاطفونها. فأرجوك أن تشير عليّ بما يجب عمله.

فقال الرجل وكان يدعي الحسد: انتظري لنري جليّة الأمر.
حينئذ دنى الأولاد من ادو راقصين ضاحكين وعند رؤيتها وحيدة
منفردة اقترب منها اثنان. فأوعز إليها الحسد بأن تتظاهر بعدم المبالاة بهما.
فحولت وجهها عنهما.

فلم ينتبها الى حركتها وسألاها: أرايت الابنة الجديدة التي انضمت
إلينا؟

فهمس الحسد في أذنها محرضاً فقالت: أني لا أظنها جميلة.
فقالا: بل هي جميلة جداً وصوتها كصوت عصفور. وحبذا لو أنك سمعتها
ترتل. فإن صوتها أجمل صوت سمعناه منذ زمن طويل.
ادو: إن صوتها ضعيف جداً.

الولدان: يجوز أن لا يكون قوياً إنما هو رخيم كصوت الطيور.
فقالت ادو بشكاسة: لا أظن ذلك، وقد سمعتها مرتين أو ثلاثاً لا تتقن
اللحن. وذلك مما يدل على أنه ليست لها أذن موسيقية.
فتحولوا عنها قائلين: يظهر أن لا شيء يرضيك. ولما رأى بعضهم الحسد
يلازمها أخذوا يمزحون لإغاظتها فقال أحدهم:

— إن رفيقتنا الجديدة ناوية على الرقص فانظروا جمال قوامها. ولا شك
في أنها تتقن كل ما تحاول عمله.

وقال آخر: لم تنضم إلينا حتى الآن واحدة مثلها والكل يضمحلون
بجانبها. وقال ثالث موجهاً كلامه الى ادو. وكانت حينئذ جالسة على العشب
بجانب الحسد مغتظة بائسة:

— انظري الى جمال لونها الوردي. فلا ريب في كونك معجبة بها.

أجابت ادو بغیظ: إنني لا أستلطف شكلها أبداً.

فضحكوا منها وقالوا: ما أسمعك! فلقد كنا نظنك أحسن من ذلك.
وعند انصرافهم سمعت أحدهم يقول: لقد تغيرت هذه الابنة تماماً. والشكاسة
البادية على وجهها سلبتها جماله، ويظهر أنها لا تطيق أن تري الناس معجبين
بأحد غيرها.

فقال الحسد فيها: أسمعين ما يقولون؟ فإنه من العار عليهم أن يعاملوك
هذه المعاملة.

لو أمكن بلثيا حينئذ رؤية ابنتها الصغيرة، لما كانت عرفتها لأن جبينها
كان مجعد من الغيظ، وكانت عيناها كعيني الحسد الذي لآزمها مملوءتين غضباً
وشكاسة.

وأخذت تدمدم قائلة: إنني سأذهب من هنا. فقال الحسد فيها: كلا. لا
تذهبي بل تجنبيهم وتظاهري بعدم الاكتراث بهم، فيتعلموا أن يعاملوك بغير
هذه المعاملة.

فصارت، إذا اقترب منها أحد رفقاءها، تنظر إليه بنفور وعدم اكتراث
فيتحول عنها ويجرض أصدقاءه على مقاطعتها قائلاً أنها لا تُحتمل. وأصبحت
ادو وحيدة منفردة فندمت على عدم إصغائها الى أمها. وابتدأت الزهور التي
جذبتها الى ذلك المكان تدبل. وكان منظر وجهها الكئيب مع الزهور الذابلة
في شعرها وصدرها مما يرثي له. وذهبت في طلب وداد معتقدة أن تلك لا
يمكن أن تتركها لكونها صديقتها الحصرية، ولم تعلم أن تلك برحت المكان
بينما كانت هي منشغلة بنفسها بسبب معاملة الآخرين لها.

ولما فتشت عنها لم تجدها في بادئ الأمر. وبعد حين رأتها تتكلم مع فتاة
ظهر من شكلها وفي السلاح الذي تقلدته أنها سائحة. ولاحظت ادو أن
"الغرور" كانت تسير وراءها وان الفتاه لم تلتفت إليها. وكان أيضاً أعداء

آخرون محتاطين بما يعملون ما في وسعهم لإزعاجها، وأما هي فكانت تشهر سيفها عليهم فيهربون. وكانت وداد تسير بجانبها معجبة بها. وسمعتها اذو تسألها:

ما السبب في أن السائحين الى المدينة المنيرة ليسو جميعهم نظيرك؟ فقد كنت الآن مع فتاه خجلت من الظهور كسائحة فخبأت سيفها تحت ثوبها. وكان حينئذ "الإعجاب بالذات" يتخطر بجانب "الغرور". فعند سماعه كلام وداد تقدم من السائحة وتطلع في وجهها لاجتذابها فلم تلتفت إليه بل حولت نظرها الى وداد، وكلمتها بصوت منخفض جداً فلم تسمع اذو ما قالته. لكنها شعرت بخجل في نفسها لكلام وداد عنها. واقتربت منها لسماع ما تقولانه ولو أنها كانت تخشي أن ذلك، وعرفت أن لا حق لها باستماعهما. وسمعت صديقتها تقول أنك تشوقيني أن أكون سائحة الى المدينة المنيرة.

وكان سماع ذلك فوق طاقة اذو. وعند تفكيرها في أن وداد حلت محلها في السعي الذي فشلت فيه ازداد توبيخ ضميرها. فتحولت عنها وهي تقول في نفسها: لو إنني اعترفت بملكي لتخلصت من صعوبات كثيرة. ولم يخطر في بالها أن دخولها البلاد الفاتنة لم يكن بإذن الملك، وأنه لا يمكنها أن تعمل عمله مادامت لا تسير في الطريق المستقيم.

واستولي عليها الغم وتاقت نفسها الى الخروج من البلاد الفاتنة في الحال. فذهبت للتفتيش عن سلاحها.

وكان "الحسد" لا يزال متتبعا إياها، فتقدم منها وهمس في أذنها قائلاً: هوذا صديقتك أيضاً قد هجرتك.

فاغتاظت منه اذو وقالت اريد الخروج من هذه البلاد وسأجد طريقي بأكثر سهولة لو تركتني وحدي.

فأجاب: بل من الغريب أن تنسك وداد بعد تلك الصداقة التي أظهرتها لك.

لم تجب ادو بشيء ولكن دلت عيناها على أنها اغتازت جداً للفكر أن وداد أيضاً قد تخلت عنها.

وقال الحسد: ولست أظنها ستهم بك لو قابلتك مرة أخرى لأنها معجبة جداً بصديقتها الجديدة.

فصاحت به ادو: ألا يمكن أن تتركني؟ إن تعاسي تكفيني فلم تزيدها بكلامك. وكان سيفها حينئذ مطروحاً بجانبها إلا أنها لم تفتن له. واستمر الحسد يقول بجانبها: إنني متأكد أنه لن تعطي لك فرصة قط لتكوني صديقتها ثانية.

حينئذ رمت ادو بنفسها على الأرض باكية وقد اشتد غيظها وشعرت بكره لوداد. وبقيت تنتحب متململة مدة طويلة.

ونال "الحسد" منها مرامه وجعل مرارة في قلبها بسبب الأفكار التي ولدها فيه. وكان ذلك لأنها لم تقمعه عنها في الحال بل ناجته وأصغت إليه.

وشعرت بضعف شديد في نفسها. فخافت من أن لا تعود قادرة على الخروج من البلاد الفاتنة فقامت تفتش عن سلاحها بجد. ولاحظت حينئذ أن الزهور التي في رأسها وحزامها ذبلت تماماً ووسخت ثيابها فطرحتها عنها بغضب. غير أن عملها هذا لم يزل البقع عن ثيابها وجعلت تفكر في باطنها:

ما عسي أن تقول أمي عند رؤيتي في هذه الحالة. وامتد فكرها في أمها الى ملكها. وأدركت أنها قد أحزنته جداً بسلوكها وخيبت آماله فيها.

فسقطت فوراً على ركبتيها ضامه يديها الى صدرها وصرخت إليه طالبة الغفران والمعونة. فأتي في الحال ملاك بهي لإنقاذها وامسك بيدها وقادها الى

نبح قريب حيث غسلت البقع عن ثيابها. ثم دلّها على سلاحها وألبسها إياها.
ولما أصبحت على أهبة السفر ثانية قادها الى السبيل المستقيم، ولم يمضِ إلا
القليل من الوقت حتى صارت بين زراعي أمها.

الفصل التاسع

معركة عنيفة

بعد أن اجتاز عمران وهيمان صديقه البلاد الفاتنة صرفاً زمنياً في سعة من الراحة والسلام والفرح. وكانت سبيلهما حينئذ على حدّ المراعي الخضراء ومياه الراحة. ولم يهاجها العدو الى حين ولو أهما كانا مستعدين لمقاومته بسيفهما في كل آن.

وتعلّم عمران من هيمان دروساً كثيرة في الصبر والتواضع. وكان تواضعهما أعظم برهان على كونهما من خدام الملك وذلك لمعرفتهما أن كل فضيلة وكل غلبة وكل ما هو طاهر فيهما ناتج عن حضور الملك معهما، وعن ذلك فحسب.

فإنه إذا عظمت شجاعة جندي وتعددت غلباته على العدو واشتد لمعان درعه، ازداد اتضاعه وقلّ ميله للكلام عن نفسه ومعارفه.

وكان عمران يستغرب القصص الطويلة التي كان بعض الذين اجتمع معهم يسردونها عن بسالتهم ومساعدتهم الغرباء على الطريق. وعن انتصاراتهم على الخلق السيئ وعدم القناعة وغيرهما من الأعداء. لكنه وجد أن هؤلاء كانوا غالباً إذا أكثروا الكلام عن انفسهم يبلغون حالة سيئة فيقعون غنيمّة باردة في قبضة الأعداء الكثيرين المترصدين على الدوام فرصة دنيئة للفتك بالسائحين .. وكان عمران يخشى عليهم عند تفكيره بما حصل له بسبب إعجابه بنفسه.

جلس الرفيقان يستريحان في المراعي الخضراء. وشربا من مياه الراحة العميقة فاستمدا قوة لجسديهما اللذين ضعفا من النضال العنيف في الطريق، وأبرق ترسأهما ودرعأهما وسترت خوذتهما رأسيهما من حرارة الشمس.

على أن الراحة زماناً طويلة ليست مقدرة لجنود الملك.

كان هيمان من وقت الى آخر يلقي يده على سيفه كمن يري عدواً قريباً منه. ولم يتجاسر عمران على سؤاله عن السبب لأن "هيمان" كان ساكناً في طبيعته لا يميل الى التكلم عن نفسه. وإذا تحول الحديث بطريق العرض الى أمر مختص بتاريخ حياته كان ينفر من ذلك. فلم يستطع عمران معرفة الكثير عن حقيقة حياة صديقة الداخلية. لكنه كان أحياناً يسمع زعقة فجائية بجانبه. فعرف أن العدو كان مراراً يسطو على ربيعة دون معرفته.

وفيما كان ذات يوم ينظر الى النور على جبين هيمان، وقد ظنه في راحة داخلية عظيمة، ذهل لرؤية وجهه يتغير فجأة وسماعة إياه يقول عابساً كمن يخاطب عدواً غير منظور: "لا تشمت بي أيها العدو". "إذا سقط أعود فأقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب يضيء لي". وبعد ذلك يستل سيفه ويرفعه كمن يهدد شخصاً.

وكان بعد صدام كهذا مع العدو يشع درع هيمان، ويتلألأ نور المدينة المنيرة في وجهه.

ولم يزعج العدو عمران كما أزعج هيمان. فنسب عمران ذلك الى أن الملك اكتنفه بجيوش كي تحفظه من العدو المترصد له لما عرفه فيه من الضعف وعدم الثبات.

برح عمران وهيمان المراعي النضرة ومياه الراحة، وبعد أن سارا مسافة قصيرة أبصرا عن بعد ادو الصغيرة تسير وحدها خائفة العزم وعلامات الحزن الشديد بادية في وجهها، وهي لا تلاحظ أن ملاكاً كان يرف فوق رأسها مستلاً سيفه لرد العدو عنها.

وسألها عمران: أين أمك يا ادو؟

فقلت: إن أمي في وادي الآلام الذي كثيراً ما يؤدي الى النهر المظلم.
وإنني في شدة من الخوف. وكان حزنها عظيماً جداً حتى إنها لم تظهر سروراً
لرؤية صديقها القديم.

وقال عمران: لا تخافي أيتها الأخت الصغيرة: فإن والدتها في حماية الملك
العظيم أينما كانت وكذلك أنت أيضاً. وهل تعلمين أن هنالك ملاكاً يحرسك
في غياب أمك؟ أولاً تسمعين رفرقة أجنحتي؟

أجابت: إنني وأسفاه لا أستحق حراسة الملاك الصالح يا عمران لأنني
ملت عن سبيلي الى البلاد الفاتنة وكدت أنسي ملكي. وبعد عودتي بمدة
قصيرة عبرت أمي وادي الآلام. ولست أطيق الفكر في إنني بسبب ضلالي
كدرت بعض أيامها. فأنا تعيسة جداً وأشعر أن لا قوة لي على محاربة أعدائي.
عمران: ومن هم الأعداء الذين أزعجوك أخيراً.

أدو: إن عائلة صغيرة تدعي "العليل" أرادت إمالي عن السبيل
وجاهدت لإعاقتي. وعند انصرافها عني تبعتني قريبها "الغم" الذي يفوقها
مقدرة. ولم أقوي على التخلي منه إلا بالدعاء المستمر الى الملك وطلب
معاونته. وحالما برح الغم ضيق عليّ آخر أشد منه.

وقال هيمان: أنا أعرف الغم جيداً.

عمران: وما اسم هذا العدو الأخير؟

أجابت أدو مرتجفة: إنني أرتعب لذكره. فان شكله مخيف جداً. وقد
تأكدت من فوزه عليّ حال وقوع نظري عليه. واسمه "الشك". وقد بادرنى
أول كل شيء بالسؤال إذا كنت أظن أنه يمكن أن يكون الملك يحبني وهو قد
أرسل أمي الى وادي الألم.

عمران: وماذا كان جوابك له؟

ادّو: لم أجه في بادئ الأمر. لكنني جعلت أفكر في أنه يجوز أن يكون الملك قد نسيني. ثم تباحثنا في الموضوع. وأرعبني جداً كل ما قاله لي، ففقدت شجاعتي. وعندما لطمني سقط الى الأرض دون أن أحاول صد لطمته عني.

عمران: ولم لم تستغيثي بالملك من أجل المعونة؟

ادّو: لقد نسيت أن أفعل ذلك. لكن شسلو ذلك الشبح اللطيف مرّ من المكان فرآني واستغاث بالملك من أجلي. وما يحيرني الآن هو أنني كنت أكره هذا الإنسان وأتكلّم عنه سراً. أما هو فقد عاملني أحسن من معاملة أب لابنته. وإن كان الملاك يسير بجانبني، فأنا مديونة بذلك لصلواته.

ثم قالت ناظرة الى عمران وقد أشرق وجهها: إنني مديونة لك أيضاً يا عزيزتي. فإني ابتدأت أن أشعر بفرح منذ رأيتك. على إنني لا أستحقك كما إنني لا أستحق الملاك.

ثم سألتها عمران: أين دليلك أيتها الأخت الصغيرة؟

فتشت في جيبها وبعد قليل أخرجته وكان لا يزال جديداً كأنه لم يستعمل. فخرجت لذلك وقالت معذرة: إن أُمّي تستعمل كتابها دائماً وأما أنا فقلما افتح كتابي.

فقال هيمان وكان قد أصغي صامتاً الى حديثهما: لعل أمك قد أخذت عنك مؤقتاً لكي تتعودي قراءة الدليل بنفسك. وقد لا يسلم السائح إذا اتكل على درس الآخرين للكتاب. فينبغي أن تطالعيه وحدك دون أن تتكلي على أحد حتى ولا على والدتك الصالحة. أنظري فها انك لا تعلمين أنه مكتوب في الدليل: "إن أبي وأُمّي قد تركاني والرب يضميني". ومن الخطأ انك شككت في محبة الملك لك. ألا تعلمين أيضاً أنه "لا يسقط عصفور على الأرض بدون معرفته"، فكيف يمكن أن ينساک؟

فسألت ادثومتعزية: أتعني أن الملك لن ينساني ابداً؟

هيمان: قد يجوز أن أمك تنساك ولا ينساك الملك يا ابنتي. ولم يمض زمن طويل حتى رجعت بلثيا الى ابنتها. ومع أنها قلما كانت تتكلم مع أصدقائها عما قاسته، فانه ظهر من ملامحها وتصرفاتها أنها قد اجتازت مياهاً عميقة. والنور الذي كان يضىء وجهها عند سماع ذكر اسم ملكها دل على أنها كانت في اتصال تام معه وهي في وادي الألم. وقالت لابنتها: حقاً إنني وجدت الدليل صادقاً. فمتي كنت في حضرة الملك لا ينبغي أن تخافي من شيء يا بنيتي. ادثو: وماذا يقول الدليل عن وادي الألم يا أماه.

بلثيا: إنه يقول: "إذا اجتزت في المياه فأنا معك وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تلدغ واللهيب لا يحرقك. إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني". ادثو: ولكن يا أماه ألسنا نظن أنه قد لا نضطر الى عبور الوادي المظلم إذ لنا الرجاء أن الملك سيأتي بنفسه ليأخذنا إليه.

بلثيا: عسى أن يكون ذلك يا ادثو. وإن لم أعش أنا لرؤية ذلك اليوم فأرجو أن تشاهديه أنت يا بنيتي.

لما انفصل سبيل عمران عن سبيل أصدقائه وجد نفسه يجد في تلة وعرة شاقة. وإذا كان قد اكتسب قوة في المراعي الخضراء، سار بين الحجارة والصخور بحذر وثبات. ولما وصل الى أوعر بقعة رأى رؤية أدهشته وجعلته يتخيل أنه في حلم. ذلك أن غابريلا وقفت أمامه بلباسها الأبيض وشكلها كما رآها آخر مرة في المدينة المظلمة. وكانت في نظرة جميلة جداً مع أنه ظهر في وجهها علامات الكبر فركض إليها ونادها قائلاً: كيف جئت الى هنا يا غابريلا؟

أجابته بتهكم: سرت في طريق مختصرة ولم اجتز قط في الباب الشرقي.
بل تسلقت حائط المدينة وجئت للتفتيش عنك.

عمران: أنت إذا على الطريق الى المدينة المنيرة؟

غابريلا: لست كذلك مطلقاً. فهل على هيئة سائحة؟

تفرس فيها عمران حينئذ، فرأى أنها غير موسومة بسمه الملك، وأنها
مسرورة بالسخرية منه. بينما ظهرت على شفيتها علامات الانتقاد.

وقالت له: أريدك أن ترجع معي يا عمران. ولاشك أنك قد تعبت من
سفرك هذا ونحن أيضاً ضجرنا من البقاء بدونك. وإني مفتقرة لك أكثر مما
تتصور.

وكان عمران قد جرب أن لا يفكر في غابريلا. لأنه وجد أن الأعداء
كانوا يتغلبون عليه كلما خاض في أحلامه الفارغة، واخصهم ذلك العدو
المكروه المسمي بالحسد. فانه اقتحمه مراراً عديدة.

ولما كان يظن أنها نسيت عمله كل ما في وسعه لطرده التفكير فيها عنه،
وأما الآن فقد وقفت أمامه بجمالها. فطفح قلبه سروراً وشعر أن محبته لها لا
تزال قوية كالسابق. ولو أنه رأى تلك النظرة الغريبة في عينيها وعلامات
القسوة على فمها.

فقالت باسطة يديها إليه: اعدل يا عمران عن السفر الى المدينة المنيرة
وارجع معي.

فأجاب محققاً النظر فيها: انك تطلبين أمراً مستحيلاً.

فلما وجدته ثابت العزم اشتد رغبتها في اكتسابه إليها، فقالت بصوت
منخفض: أنسيت ذلك اليوم الذي قلت لي فيه إنني سأكون مدينتك المنيرة.

علت الصفرة وجه عمران. حينئذ قال متأثراً: إنني مستعد أن أعمل كل ما تريدين إلا الرجوع الى الورااء.

فقالت عابسة: ذلك يعني أنك لا تعمل الأمر الوحيد الذي طلبته منك. وكان منظرها جميلاً جداً. وتذكر عمران الأيام القديمة وشدة محبته لها في ذلك الزمان. فحقق قلبه ولم يعد قادراً على تملك شعوره فقال متحمساً: إنني احبك كما أحب نفسي.

انتهزت غابريلا فرصة ضعفه هذه وأجابت مبتسمة: انك لا تحبني بل تحب نفسك أكثر جداً.

وعند سماع كلامها قبض عمران على سيفه، ألا أنه شعر أن العدو كان يستعمل شفقي من أحبها فوق كل شيء لإغوائه. فهل كان هذا عمل ابليس نفسه؟

وتذكر حينئذ الكلام الذي لم يفهمه قبلاً "إن مصارعتنا ليست مع دم ولحم ولكن مع الرؤساء والسلطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر". فصرخ فجأة: "اذهب عني". ثم التفت الى ورائه ظاناً أنه سيجد عدواً جديداً فلم يرَ أحداً وكان العدو محتبياً.

وقالت غابريلا: وا أسفاه! إنني أري أنك لا تزال مجنوناً وأنه لا يمكن أن نتفق لكوننا من جبلتين مختلفتين. ثم خفضت صوتها وقالت: ولكن من يعلم؟

فربما إن رجعت معي الآن أباشر السفر معك يوماً من الأيام. وقف عمران لحظة متردداً ثم قال: لا أظن أنك لو رجعت معك تسيرين معي الى الأمام. فلو كنا كلانا سائرين في طريق واحد لكان لي رجاء في ذلك.

— لوفعلتُ ذلك لهلكتُ من التعب. فلأفضل لي أن أقبل نصيحة والدتي
وأتزوج بدسمند. إنما أردت قبل عمل ذلك أن أتأكد من كونك لا تعدل عن
عزمك وفكرك. فاستودعك الله.

قالت غابريلا ذلك وتوارت عن بصره.

وفيما هو يراقب هجم عليه العدو الكبير وطعنه بسهامه المسمومة
محاولاً أسره. فحول نظره الى المدينة المنيرة وصرخ الى ملكها من وسط آلامه
فنال قوة للثبات في مكانه.

واشتد الكفاح بينهما وتصارعا بكل قواهما دون أن يتراجع احدهما عن
الآخر، وبقياً على تلك الحالة مدة طويلة حتى أحس عمران كأنه تحت ضغط
شديد يصعب التخلص منه. لكنه استمر يقاوم بثبات عظيم شاعراً بحضور
الملك بجانبه، وإن اللذين معه أكثر من اللذين عليه، وأخيراً أخذ العدو يضعف
شيئاً فشيئاً حتى تقهقر الى الوراء بعد أن جرح جراحاً بليغة.

وأما عمران فبعد نصرته هذه سقط على الأرض خائر القوي كماتت.
فأنت أيد لطيفة وخدمته. وتغلب عليه النعاس فنام ذلك "النوم الذي يعطيه
الملك لحبيبه". ولما استيقظ رنت هذه الكلمات في أذنيه. "لا يدع رجلك تنزل
لا ينعس حافظك" — "الرب حافظك".

الفصل العاشر

عبور هيمان

لما التقى عمران بهيمان بعد ذلك اندهش من هيئة وجهه. فإنه رأى فيه نوراً لم يره قبلاً. وقال له ذلك بصوت منخفض خاشع: أني مقترب من النهر. لكنني متكل على ملكي ليعضدني.

فقال عمران بجزن: ليس الآن يا هيمان. حقاً لم يأت الوقت بعد.

أجاب هيمان بتفكر: أظن أني مصيب في زعمي أن النهر قريب جداً وكذلك أيضاً النزاع الأخير مع العدو. ولما وصلا الى منعطف في الطريق وقع نظرهما على وادٍ مظلم يجري في آخره نهر.

وكان نصيب عمران أن يسير بعد مدة على شاطئ النهر، وأما هيمان فأنتهي سفره عند حافته.

سار الفتى برعب بجانب هيمان. وكان يتعجب من هيئة السرور البادية على وجهه. ولما نظر الى ما وراء النهر رأى نوراً باهراً يشع من المدينة المنيرة. ولاحظ أن عيني صديقه كانتا محدقتين فيه. ثم خال له فجأة كأن غيمة مظلمة جاءت بين هيمان والمدينة.

وأن ذاك قال: هو العدو. وإنني شاعر أن لا قوة لي على النزاع الأخير، فصل من أجلي وأطلب الى الملك بصوت مرتفع كي يأتي الى معونتي.

ثم رأى عمران "كما في حلم الغيمة تتحول الى جيش مؤلف من جنود سود" كأن ابليس وملائكته متحالفون على اغتصاب ذلك الجندي الصالح من الملك "فتذكر كلام النذير: "إن البعض يكافحون حتى النهاية".

صرخ عمران الى الملك من أجل صديقه. وعندئذ أبصر على حافة النهر صليباً ملقياً ظله على هيمان. وكان ذاك يميل إليه أحياناً للاستناد عليه. وعند

التصاقه بالصليب كانت قوات الجحيم المحيطة به تتراجع الى الوراء كمن أصيب بجراح.

وفهم الفتي أن هنالك جيشاً من الملائكة البهية يعضد الجندي الضعيف ضد الأرواح الشريرة التي كانت تحاول فصله عن الصليب. ولما غشي أخيراً على هيمان وكاد يغرق في المياه العميقة حملته تلك الأرواح البهية على أذرعها اللطيفة وألقته في بقعة من النهر حيث وقف شخص ذو بهاء ساطع، ظهرت في يديه المبسوطتين علامات المسامير. وسمع عمران صوت موسيقى عذبه لم يسمع نظيره فعلاً آتياً مما وراء النهر حيث كانت الجماهير تهتف مرحبة بالجندي المقبل الى وطنه. فخرّ على ركبتيه وسجد.

وقال صوت بجانبه: اواه! فلقد تأخرت ولم أشاهد هذا الجندي الباسل يعبر النهر. إنه من أشجع وأحسن الجنود الذين عرفتهم. فالتفت عمران وإذ بالندير بجانبه فتعزي لرؤيته وسأله بصوت مرتجف: هل دائماً، يا سيدي يضايق العدو جنود الملك عند النهاية بشدة كهذه؟ وإذ ذاك أخبره عن الضيقة والجهاد العظيمين اللذين عاناهما هيمان في ساعاته الأخيرة.

فقال النذير: كلا يا بني. لكن ليس في ذلك ما يدهشني كثيراً. لأن جهاد الجندي الباسل يكون في أكثر الأحيان أشد من جهاد الجندي الضعيف. فالعدو حاول لآخر مرة انجاز العمل الذي فشل فيه في الماضي. على أن الانتقال الى المدينة المنيرة يكون غالباً مقروناً بالسرور والسلام. وقد رأيت جنود يهتفون فرحين عند وصولهم النهر. وشاهدت آخرين محاطين بسور من النار بحيث لم يستطع العدو الاقتراب إليهم. لكن الملك يعرف الجميع جيداً ولا

يدع أحد يتجرب فوق استطاعته. "وهو يجعل مع التجربة أيضاً المنفذ". وما أعظم الجزاء الذي سيناله هذا الجندي الصالح. فضيقته كانت وقتيه فقط وهي تنشئ له "أكثر فأكثر مجداً أبدياً".

وكان عمران حينئذ يجوز في وادي ظلال الموت فقال مرتجفاً: إنني أخشي النهر.

أجابه النذير: كلا يا بني فلا ينبغي أن تخاف، ومتي حان الوقت لعبورك النهر يمدك الملك بمعونته. أولم يعد أنه سيكون معك؟ ولعلك أيضاً لا تضطر الى عبوره. لأنه يجوز أن الملك نفسه يأتي أولاً مع الغمام ليأخذ خاصته الى وطنهم. ثم قال: لكن يلوح لي الآن أن الغم قريب منك. فاستلّ سفك أيها الفتي وأشهره.

ووجد عمران أن النذير مصيب في قوله. فإنه حالما أشهر سيفه وليّ عنه الغم وابتدأ يفكر في النور الذي ظهر على وجه هيمان وفي نشيد الترحاب الذي سمعه. ورفع عينيه نحو ملكه وقال: "في يوم خوفي أنا عليك أتكل".

الفصل الحادي عشر

الغابة المظلمة

"في يوم خوفي أنا عليك أتكل".

لم تبرح هذه الكلمات من ذهن عمران في القسم التالي من سفره لأن سبيله كان يؤدي الى غابة مظلمة. ولما نظر الى داخل معابرها الطويلة توقف عن السير حائراً. لأن دموسة ظلامها جعلته يشك في كونها الطريق المرسومة له. وازداد حيرة عندما دخلها ووجد أنه لا يستطيع أن يبصر إلا مسافة قصيرة جداً أمامه. ولكن لما نظر الى قدميه زال شكه ورأى الطريق واضحة قدامه بالرغم من أنه كان لا يري إلا خطوة خطوة. فتقدم بقلب جريء الى أوساط الغابة المقفرة بعد أن شد سيفه على جانبه وتفقذ بقية سلاحه.

وكان في بادئ الأمر مطمئناً لأنه رأى على مسافة بعيدة جداً نوراً ضئيلاً منبعثاً من المدينة المنيرة. ولكن بعد قليل تلاشي هذا ذلك النور فبات في ظلمة دامسة.

واستولي سكوت مخيف على المكان. ولم يعد يسمع صوت نسيم الهواء ولا رفرقة أجنحة طير بين الأشجار، كأنما هو في عالم ميّت. فقبض على سيفه بيدين مرتجفتين وسال العرق من جبينه. وأصبح لا يستطيع من شدة خوفه من الظلمة والسكوت على رفع صوته والنداء لعلّ هنالك من يأتي لإعانتة.

وفيما هو يسير الى الأمام خطوة خطوه بكلّ عناء مندهشاً من الظلام والوحدة اللذين لم يختبر نظيرهما قبلاً، وقد ابتداءً يخور عزمه توقعاً للشر، طرقت ذهنه بعض كلمات الكتاب، فاستنار كما بشعاع منبعث من المدينة المنيرة.

"من منكم خائف الرب سامع لصوت عبده. مَنْ الذي يسلك في

الظلمات ولا نور له، فليتكلم على اسم الرب ويستند الى إلهه"

فصاح قائلاً: "في يوم خوفي أنا عليك أتكلم".

وعند سماع صوت نفسه في وسط ذلك السكوت العميق تشدد
وتشجع متعزياً.

وكثيراً ما لجأ عمران بعد ذلك على دعاء ملكه بصوت عال في سفره
المظلم هذا. وكان إذا فعل ذلك يشعر "بحضرة" قريبة منه وبرفيق يلتهب له
قلبه فيستعين بهذا الشعور على تحمل أهوال الظلمة التي كانت تغمره.
ولما كان أحياناً يفقد الشعور بتلك "الحضرة" كان يجد تعزية في وعد
الملك القائل أنه يكون مع عبده الى النهاية فيتأكد أنه معه ولو أنه لا يراه
ويرفع صوته مردداً كلمات الكتاب "لماذا أنت منحنية يا نفسي ولماذا تتنين فيَّ.
ارتجي الله لأني بعد أحمده لأجل خلاص وجهه".

ولما بلغ القسم الأخير في سفره في الغابة المظلمة لمح على مسافة بعيدة
شعشعة نور. وكان كلما تقدم في السير يزداد ذلك النور إبراقاً. وأخيراً
ظهرت له المدينة المنيرة من منفذ بين الأشجار في بهاء مدهش لم يشهد نظيرة
قبلاً. فخر على ركبتيه وسجد للملك الذي أخرجته سالماً من وسط الظلام.
ثم قام وجعل يلتفت حوله ظاناً أن سبيله سيكون الآن نحو العلاء وأن
الظلام لا يعود يغمره بعد. لكن لما بحث عن مسلكه وجد انه سيؤدي به مرة
ثانية الى الغابة من طريق أخري.

فصاح قائلاً: أواه إن قوتي ستفارقني فلا أستطيع مقاومة أهوال الظلمة.
واستولي عليه القنوط فجلس في ظل شجرة وجعل يئن بصوت مرتفع واستمر
على تلك الحالة مدة طويلة الى أن نعس فنام.

وفي منامه رأى الملك واقفاً أمامه. ولم يكن متسربلاً بالقوة والقدرة وذا
جمال باهر لا يعبر عنه كما كان يظنه، بل كان لابساً على رأسه إكليلاً من

الشوك. وكانت يدها ورجلاه تقطر دماً وقد تشوّه وجهه من شدة الحزن والألم. وكان بالرغم من جروحه يحدق النظر في حمل صغير انفصل عن القطيع ووقف يتغو على حافة جرف. ثم ذهب إليه في وسط الأشواك والصخور الصعبة المسلك، غير مبال بجروحه التي تفتحت ولا بخطورة الطريق. وانحني فوق الهوة المريعة وانتشله بيديه الداميتين واحتضنه.

استيقظ عمران وهو لا يدري أهو في حلم أم يري رؤيا. ولكنه أدرك أمراً واحداً وهو أن في ذلك درساً له غير وجهة نظره في سياحته فلم يعد يفكر في الأخطار والصعوبات التي يصادفها، وعرف أنه قد خلص لكي يخدم الآخرين. وأن هذه الاختبارات والتجارب القاسية التي طرأت عليه لم تكن فقط لتؤهله الى دخول المدينة المنيرة، بل لتعيّنه على مساعدة رفاقه في السفر والشعور معهم. وعندئذ قام وواصل السير في سبيله. وكان من وقت الى آخر يحول نظره الى المدينة المنيرة فتخفّ بذلك وطأة الظلام ولا يعود يشعر بالسكوت الذي شعر به قبلاً. والتقي بعد ذلك بكثير من السائحين الذين قد أعياهم الخوف وضايقهم الغم فكان ينشطهم ويشجعهم على مقابلة العدو في القتال والتغلب عليه.

وبينما كان ذات يوم سائراً رأى إنساناً على العشب منكباً على وجهه. فظنه لأول وهلة فاقد الحياة. ولما اقترب منه وجد أنه شسلو، وقد كان منهكاً خائر العزم. وليس في وجهه ما يدل على نشاط ولا في فمه كلام يحییه به. ونظر ذلك إليه بعينين حزينتين ذابلتين بخلاف ما اعتاد عليه.

فسأله متعجباً: أهذا أنت يا شسلو.

فلم يجيبه بشيء بل استمر ينظر إليه بإعياء دون أن يتفوه بكلمة. ولما رأي في وجهه ما دلّ على عطف شديد تنهد عميقاً.

فسأله عمران: أمتألم أنت يا صديقي؟
أجاب شسلو: نعم إنني متألم روحاً وجسداً. وأنا في ظلمة دامسة يا
صاحبي.

فتلفت عمران حوله ثم قال: لست في الظلمة فقط، بل إنك أيضاً في
قبضة الفشل والغم واليأس.

فصرخ شسلو متهيجاً وقد استفاق من سباته وتحمس للعمل: ماذا
تقول. أعني أن هذا عمل العدو؟

عمران: أنه عمل العدو. وما عسي أن يكون خلاف ذلك؟
شسلو: لقد ظننت أن الملك نسيني.

عمران: لم ينسك الملك. بل العدو افتقدك. فالملك لا ينسي خاصته
أبداً. ولو أنك تلفت حولك عوضاً عن أن تستسلم لليأس، لكنت أدركت أنه
عمل هؤلاء الأعداء الثلاثة الذين أراهم الآن محتبئين بين الأشجار.
شسلو: فتأوه ذاك قائلاً: إنك لا تعرف هذه الغابة. فإن أهوالاً قد
اكتفتني وهي مركز للرعب ولظلام الموت.

عمران: إنني أعرفها جيداً جداً أيها الصديق، وقد صرفت فيها زماناً
طويلاً. ولولا معونة الملك لكنت لآلتني الآن نظير حالتك هذه.

فرفع شسلو رأسه وأحدق النظر في وجه عمران ثم قال: ومع ذلك
فهيتك تدل على أنك منزّه. فهل حقاً كنت في نفس الضيقة والأهوال التي أنا
فيها الآن؟

عمران: لقد كنت في ظلمة شديدة جداً لا أتجاسر على التفكير فيها.
لكنني رأيت المليك في رؤيا حولت لي الظلام الى نور. وقد تعلمت في تلك
الظلمة درساً ينبغي أن أشكره من أجلها في كل حين. إنما تعال الآن فأساعدك

على القيام. وإن هاجمك الأعداء ثانية أضم سيفي الى سيفك لمحاربتهم. وانه
لأمر طبيعي أن يهاجم العدو جندياً صالحاً مستعداً على الدوام لمساعدة الحزاني
والمحتاجين نظيرك، فلا عجب في كونه اقتحمك في سفرك وصمم على قهرك،
فانك عملت حسنات كثيرة في حياتك. أما أنا فإنني لم أعرف قبل الآن إنني
خلصت لأخدم الآخرين.

شسلو: انك لا تعرفني ولا تعرف مقدار الخطأ الذي ارتكبته. وكثيراً ما
كنت أدين من هم أحسن مني طالباً إصلاحهم بحسب آرائي. على إنني شعرت
بسقوط عظيم وإنني عديم النفع للغير في سياحتي. ولما وجدت نفسي في هذا
المكان المقفر خفت أن يكون الملك قد نسيني. ثم قام عن الأرض وقال: ولكن
إن كنت مصيباً في زعمك أن هذه التعاسة من العدو وليست ناتجة عن إغفال
ملك المدينة المنيرة وإيائي، فإنني مستعد للقتال بشجاعة.

وقال عمران: لقد فهمت الآن الغاية التي من أجلها فرض عليّ المرور
في هذه الغابة في المرة الثانية. وذلك أن الملك كان يفكر فيك وأرسلني لأساعد
من ساعدني في الماضي.

أجاب شسلو مندهشاً: إنني لا أذكر ذلك أبداً. بل أنا إنسان عديم
المنفعة أتحرش بكل من ألتقي به ظاناً أن في ذلك خيراً له وإني كذلك المجنون
الذي يدخل الأماكن التي تخشي الملائكة دوسها.

فأكد له عمران أنه كان أول من نبهه الى خطر المدينة الفاتنة وأنه لولاه
لكان لا يزال فيها، ثم قال: تعال الآن فانه لا ينبغي أن تتأخر هنا.

فشد الجنديان الباسلان سيفهما وسافرا مسافة يحاربان العدو معاً
ويساعدان الكثيرين من الجرحى الذين أطلقوا عليهما أخي عزر "أخوي
المعونة" وباركوا الملك لإرسالهما.

ولما وصلا الى آخر الغابة انفصلت طريقهما. وسار عمران في نور الشمس المنتشر يتنشق الهواء النقي بالابتهاج والشكر. واجتاز حقولاً مملوءة بالزهور ذات الألوان البهجة والرائحة العطرية. وسمع أغاني الطيور التي كانت ترحب الهواء. فامتلاً قلبه حبوراً لاسيما عند ذكره ذلك المكان الناشف المظلم الذي كان فيه أخيراً. ومما زاد فرحه أن سيبله كان حينئذ على جانب تله وأن الهواء كان يزداد نقاوة كلما تقدم الى العلاء. وكذلك كانت المدينة المنيرة تزداد لعينيه وضوحاً وجلاءً.

وسرّاً أيضاً لالتقائه مرة ثانية بصديقه إدو وأمه، اللتين بعد أن رحبتا به وتفريستا في وجهه قالتا:

لقد صرت رجلاً يا عمران وعلامات القوة والانتصار بادية في وجهك، فلا شك في أنك قد اكتسبت اختبارات عظيمة في سياحتك.

تذكر عمران حينئذ المكان الذي كان فيه منذ زمن قصير فقال متأثراً:
إنني اجتزت الغابة المظلمة. غير أنني وجدت نوراً في وسط الظلام.

الفصل الثاني عشر

ارتفاع خطير

لم يسر عمران مدة طويلة مع صديقيه بل انفصل سبيله عن سبيلهما في رأس تلة خضراء جميلة مرصعة بالزهور.

فإنه منذ خروجه من الغابة المظلمة كان لا يسير إلا نحو العلاء. فلما تطلّع الآن ورأى جبلاً شامخاً فوق رأسه تحوّل التل الأخضر في نظره الى وادٍ منخفض ولم يعد يري فيه إلا صخور عابسة وجرفاً عميقة. وإذا كان لابد لصديقه من السير بعد على السهل، ودعهما وواظب على السفر وحده بنشاط.

ولم يكن يعلم الى أين سيؤدي سبيله، ولكنه عرف انه مسافر الى الملك وأنه ينبغي أن يتسلّق المرتفعات ولا يسير في الظلام. أن المدينة المنيرة في مكان مرتفع على بعد شاسع جداً. ففتح الدليل وفتش في صفحاته ليتأكد من كيفية مسيره. فلقي فيه عبارات كثيرة فنشطته وشجعتة. على أنه وجد أيضاً عبارات تحذير جعلته يفكر كثيراً: "من يظن أنه قائم فليُنظر أن لا يسقط".

فحمل الدليل بيده الواحدة وقبض على السيف باليد الأخرى وواصل اليسر الى فوق وكانت الطريق في بادئ الأمر على منحدر سهل بجانب صخور بارزة، تخرج منها من وقت الى آخر ينابيع ماء بارد كان يروي منها ظمأه. وكان المنظر بهياً جداً لكنه على الرغم من ذلك شعر بقرب الأعداء من المكان وأنه ليس من الحكمة أن يتواني في السير.

وإذا كان يتقدم الى العلاء كان الهواء يزداد نشاطاً والطريق وعورة وصار لا يرى أمامه إلا أحادير عابسة وأخاديد عميقة وصخوراً شاهقة متراكمة بعضها فوق بعض. فراعته هول المكان وسُحر لعظمتته.

وما زالت سبيله تقوده الى العلاء حتى وصل الى مرتفع شاهق جداً، شعر فيه بدوار وقشعريرة مقرونين بالابتهاج.

وتذكر حينئذ كيف أنه عندما صعد تلة في بداية سفره جاشت روحه فيه فاندفع ينشد متعظماً "لا أترزع الى الأبد. يا رب برضاك ثبت لجبلي عزاً". وكيف أنه ما كاد يكمل كلامه حتى تعرض له العدو المدعو الكبرياء الروحية بخيوله وعدته الفاخرة وقاده الى ذلك الكهف الذي كاد يكون سبب هلاكه. وكيف اضطر بعد ذلك الى إبدال نشيده بالعبارات التالية: "حجبت وجهك فصرت مرتاعاً".

فنبهته تلك الذكرى المؤلمة وعبارات التحذير التي قرأها في الدليل كي يحتاط ولا يفكر كثيراً في نفسه. فصار إذا خطر له أنه جنديّ باسل وأنه قُسم له أن يسير في تلك الطريق الوعرة بسبب ذلك يعرف أن العدو قريب فيطرد عنه هذا الفكر السقيم في الحال.

ولما وصل الى قمة شامخة جداً توقف فجأة عن السير. وكان لا بد له من المرور على جسر مكون من صخرة طبيعية لا يزيد عرضه عن قدم واحدة ولا حاجز له يقي العابر عليه. وهو ممتد فوق مضيق مظلم عميق جداً لا يري أسفله.

نظر عمران الى ذلك الجسر المعلق وكاد يغشي عليه لأنه شعر أن عدم السقوط عنه أمر مستحيل. وأن المرور عليه أشبه باحتضان الموت. ولما مال على سيفه وتطلع في المضيق تحته لاحظ أن الهضاب والصخور هناك كانت مملوءة بالكهوف وأن أشباحاً صغار القامة بلباس مظلم قاتم كانوا يركضون ذهاباً وإياباً يدخلون ويخرجون منها في حالة انهماك وهياج شديد كمن يستعد لحادث مهم. فعرف أنه لوزلقت رجله وقع في قبضتهم لا محالة.

وعلى الهضبة في منتصف الطريق الى أسفل رأي فرقة من الجنود بلباس أحمر وسلاح ذهبي، عرف أنهم جنود الكبرياء الروحية. ولم يكن هؤلاء منهمكين كالذين في أسفل المضيق بل وقفوا دون حراك مصوبين سهامهم نحو الجسر الذي كان لابد له من المرور عليه.

راع ذلك المنظر عمران فوهن عزمه ونفرت عروق جبينه لشدة خوفه وضيقه نفسه وصرخ بمرارة: إنني هالك لا محالة.

وعند ذلك شعر أن يداً أخذت تشد كاحله فنظر وإذا بعائلة العليل يحومون حوله. فاستل سيفه مغتاضاً وفاجأهم به ففروا من أمامه حالاً.

ثم جعل يتلفت حوله ملتمساً سبيلاً للنجاة. وأخذ يفكر في نفسه: ألا يجوز أن أكون قد أخطأت السبيل. أليست هنالك طريق أسهل وأقل روعاً اجتازها فأتخلص من المرور على الجسر ولو أن ذاك لا يكسبني فخراً.

ولم يكن هنالك سوي ذلك السبيل الذي رسم له، والذي لم يكن مستعداً لاتخاذ.

وحيئذ فطن للدليل ففتحه لعله يجد فيه ما يعزیه في ذلك المأزق الصعب فوجد عبارات سادّة لحاجته وليس واحدة فقط.

"لا تخف لأني معك. لا تلتفت لأني إلهك، قد أيدتك وعضدتك بيمين برّي"

"أرشدك الطريق التي تسلكها، أنصحك عيني عليك"

"ناظرين الى يسوع"

"قوتي في الضعف تكمل"

وفيما كان يقرأ تلك الأقوال رجعت إليه شجاعته وأخذ يستعد للسعي وتقدم الى الأمام بسلاح ملكه الكامل. ورأي ظلّ صليب ممتداً على طول

الجسر، وكان إذا خطا خطوة يكتنفه ذلك الظل كسور منيع، فوجد في ذلك تعزية لنفسه مع أنه كان شاعراً بأزيز سهام العدو المتطايرة حوله، وأصاب بعضها درعه وترسه دون أن توقع به ضرراً. وتطاير غيرها حول خودته بغزارة وكاد دنينها يصمُّ أذنيه. ولولا ظل الصليب الذي اكتنفه لوهن عزمه وسقط. وكان أيضاً على معرفة من أن الحليفين اليأس والقنوط في الهوة المظلمة تحته يستعدان لإسقاطه. وانه إذا فكر فيهما أو نظر إليهما لحظة تعثرت خطواته، وأن لا نجاه له إلا بالنظر المستمر نحو المدينة المنيرة حيث كان ملكه. فكان إذا صوب نظره الى الأعلى ينسلّ سلام عجيب على قلبه وسط دنين السهام المتكاثفة حوله.

ولم يلحظ عمران النفر القليل من السائحين الذين كانوا بانتظاره وراء الجسر لأن قلبه كان طافحاً بالشكر والحمد للملك الذي عضده ونجّاه من ذلك الخطر العظيم. وأخذته الدهشة عندما وصل إليهم وأخذوا يصفحونه بحماس ويغمرونه بكلمات الترحاب. ولم يكن قد خالجه فكر ما في أن له فضلاً في اجتياز الجسر وسط سهام العدو دون أن يُمس بضرر، ولكن لما رأهم يهتفون معجبين بشجاعته وإقدامه ابتداءً يفكر في الأمر.

وكان هؤلاء قد وصلوا قبله لأنهم أُرشدوا في سبيل أقل صعوبة. فلما رأوا أنه اجتاز فوق المضيق المريع باطمئنان وسط سهام العدو المتناثرة عليه. وعيناه شاخصتان الى المدينة المنيرة فيما وراء المضيق، اخذوا يهنتونه ويمدحونه وكانت بينهم بلثيا وابنتها.

وقبضت اذو على يده وعيناها تشرق كالنجوم وقالت: إنني مسرورة جداً وفخورة لكونك صديقنا. ولا شك في انك عظيم جداً في عيني الملك حتى قادك للسير في هذه الطريق المرتفعة ذات الأخطار.

وقال له آخر: إنك قدوة لنا جميعاً. وإنما لن ننسى قط ما شاهدناه في هذا النهار. فياليتني أنا أيضاً أكثر بسالة وأقوي إيماناً.

ثم قال له ثالث: كيف استطعت على السير مستقيماً دون أن تميل يميناً وشمالاً، فقليلون جداً هم الذين يسيرون في هذه الطريق ولا يمسهم فيها ضرر لأن مجرد الارتفاع يجعل الإنسان يشعر بدوار ويفقد وعيه.

أجاب عمران: إنني لم أفعل شيء من تلقاء نفسي. غير أن مديحهم راق في عينيه.

ولم يعلم أن بعض جنود الكبرياء الروحية الذين فشلوا في سعيهم لإهلاكه على الجسر برحوا مراكزهم وتسلقوا الصخور بسرعة لملاقاته عند وصوله سالماً الى الجهة الثانية. وفاته أن الأفكار التي كانت تجول في خاطره أثناء إصغائه الى مديح أصدقائه هي سهام مسمومة رشقه بها هؤلاء الجنود.

وقف عمران يستمع بسرور لتهاني أصدقائه عن شعوره أثناء مسيره على الجسر، ولتقديم النصائح لهم "كمن يفوقهم قدراً ومعرفة" فيما لو قسم لهم أن يجوزا في تلك الأخطار التي اجتازها. ولما كان لا بد له من المسير زمناً بعد برفقة غيره من السائحين، كان مراراً يجد نفسه "وقد أصبح يتلهف لمديح الناس له" مصغياً بلذة لحديث بعض الذين تأخروا وراءه وجعلوه موضوع كلامهم.

وأغتاظ جداً من أحد السائحين، وكان رجلاً أكبر منه عدة سنوات، لأنه لازم السكوت ولم يُضف كلمة واحدة من المديح الى تلك التي غمره بها الآخرون، وازداد غيظاً عندما وجده مهتماً بملازمته على الدوام، مما جعل الكثيرين من المعجبين به يتعدون عنه.

ولما ابتداءً ذاك ينظر إليه باضطراب ورزانة شديدة لم يتمالك عن أن يسأله: أيجوز لي أيها الصديق معرفة أفكارك؟

أجاب الرجل: إنني أخشى أن لا يكون كلامي ما اعتدت على سماعه. ولكنني أعطف عليك كثيراً ويهمني جداً أن لا يخيب أمل ملكنا فيك. فإن شئتَ أطلعتك على ما يجول بخاطري من الأفكار.

بدت على وجه عمران ملامح لم تظهر فيه قبلاً، إذ كان قد اعتاد سماع المديح المستمر. ولكنه أجاب: ها أنا مستعد لسماعك.

فقال السائح بترواً: يؤسفني جداً أن أرى سائحاً يؤخر سائحاً آخر عن السفر. فالعدو على ما يظهر قد استعمل هؤلاء الجنود لمضرتك. وسأله عمران ببرودة: أصحيح ذلك؟

وأما ذاك فآتم كلامه قائلاً: إنك لم ترَ يا صديقي ما رأيتته أنا. وذلك أن جنود الكبرياء الروحية تسلقوا الصخور واتخذوا مراكزهم بجانبك. فالتفت عمران حوله بانزعاج ثم قال: إنني لا أرى لهم أثراً.

الرجل: كلا. لكن هل أنت تجهل بعد أن اللذين يهاجمهم هؤلاء الأعداء هم في الغالب آخر اللذين يروهم.

عمران: إن كان ما تقوله صحيحاً فليس ما يستوجب العجب، لأن من عادة هؤلاء مهاجمة أشد جنود الملك بسالة.

فنظر الرجل إليه بحزن وقال: لا تكدر ملكنا بعد كل الذي عمله من أجلك. فإنه هو الذي أنقذك من الخطر الشديد الذي تعرضتَ له. وأرجوك أن تتضع وتذكر بأنك مدين له بسلامتك، وألاً تنسب ذلك لشجاعتك الذاتية.

أجاب عمران بلهجة الترفع: انك مصيب في ما تقوله، ولا أحد يعلم هذه الحقيقة أكثر مني. لكنك نسيت على ما أظن أنه قد يمكن الإنسان اهانة

الملك بإنكاره ما منحه إياه من الشجاعة والحكمة، كما أنه يمكنه إهانته بالكلام الكثير عن مواهبه.

لم يغتظ الرجل من العظة التي ألقاها عليه عمران بإعجاب. مع أنه كان أصغر جداً منه. وبعد أن لزم السكوت فترةً نظر إليه بعينيه الحادتين وقال بترو: "من يظن أنه قائم فليُنظر أن لا يسقط".

ثم تحول عنه وسار في السبيل المرسومة له وكان حينئذ غير ذاك الذي سلكه سائر السائحين.

أما عمران فجعل يراقب بقلب مملوء من الغيظ منه والاحترام له. ثم تلفت حوله ليتأكد من صحة كلامه فلم يجد أثراً للأعداء. وكانوا قد اختبأوا جيداً.

وإذ كان يسير برزانة متفكراً، سمع أحد السائحين يقول له: يسرنا جداً أن يكون نصيبنا السير مدة من الزمن في الطريق التي أنت سائر فيها لأن في رفقتك فائدة لنا. وأنت تفوقنا اختباراً ومعرفةً وسنكون في أمن إذا اقتدينا بك وأتبعنا مشورتك. ولا شك في أنك ستحذرننا من الخطر وتكون أول من يكتشف العدو بيننا.

كان عمران منذ زمن يسير يُسرّ لسماع مثل هذا الكلام. وأما الآن فتكدّر منه جداً وذلك بسبب ما دار بينه وبين السائح الشيخ من الحديث. وأجاب بصوت منكسر: كلا يا صاح فإنني لا أرى نفسي ذا قدوة ممتازة ولا أن مشورتي أفضل من مشورة غيري.

أجاب رفيقه: إنك تتكلم هكذا لوداعتك. وإنني قد اخترت أن أشجع وأشرف وأبسل جنود الملك أكثرهم اتضاعاً. عندئذ دنت منه بلثياً وادّو مع غيرهما من السائحين وسألوه عن اختباراتهن وتعاليمهن.

ووجد عمران في استماعهم لذة أعظم مما وجد في الاستماع الى نصيحة الشيخ. ولم يعلم أنه بينما كان يتكلم علانية عن اختباره معجباً بنفسه كان وجهه يتغير تدريجياً ونور المدينة المنيرة يزول عنه. وأن الأعداء تتبعوه متخفين على مسافة تمكنوا فيها من قذف سهامهم الى أسلحته المرتخية على جسمه. ضاحكين في باطنهم لنوال غرضهم بإخضاعه وتشجيعه على الكلام عن معرفته واختباره الجسدية والروحية عملاً بأحد القوانين المفروضة على جنود الكبرياء الروحية: "تشجعه كي يتكلم عن معرفته واختباره الروحية والجسدية".

وفيما هم سائرين رأوا عند المنعطف في الطريق ولداً جالساً وحده يبكي. وكان من عادة عمران في حالة كهذه أن يُسرع لمساعدة وملاطفة أي إنسان. "أولم يكن أحد أخوي المعونة؟". لكنه لم يفعل ذلك الآن، بل التفت الى الجماعة حوله، فقامت فتاه من بينهم واتخذت الأمر على عاتقها.

وأما هو فجعل يقول في نفسه: إن العناية بولد صغير لا تحتاج الى مواهب ومقدرة خصوصية. وأي إنسان يستطيع إتقانها. فليست في من واجباتي. وفي إتقانها تبيد لقواي. أما عملي فهو قيادة الآخرين. أوليس جميع هؤلاء الناس منوطين بي، وينتظرون أوامري؟ فعلي أن لا أخيب آمالهم.

ولم يكن كل الذين احتشدوا حول عمران من طبقة واحدة. بل كانت أخلاق بعضهم وثيابهم الثمينة تدل على أنهم أرقى من سواهم معرفة وتهذيباً. ولاحظ ذلك أحد أعداء عمران الذي كانت له علاقة به في المدينة الفاتنة فهمس في أذنه قائلاً: إنه لمن صالحك أن تكرم هؤلاء الناس ذوي النفوذ.

لم يميز عمران صوت العدو ولم يستعمل سيفه الذي كان مهملاً في غمده. وجعل يهتم بالمهذبين من السائحين غير مكترث للبسطاء منهم. على أنه لم يشعر بارتياح تام لهذا الأمر بل كانت تتردد في ذهنه أحياناً بعض كلمات كان قد قرأها في الدليل: "يا إخواني لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح في المحاباة". وأما العدو فكان يهمس إليه: بل متى وجدت نعمة في عيني ذوي النفوذ من هؤلاء تتمكن من استمالة الكثيرين لسماع مشورتك الصالحة. وفي ذلك إسعاف لعمل الملك لا تأخير له. فبقي عمران مدة يصرف أكثر أوقاته في عشرة المهذبين من أتباعه مهملاً البسطاء منهم.

واقتربت إليه الفتاه التي تأخرت لإسعاف الولد الصغير بوجهه يطفح سروراً وقالت: إنني ممنونة لك لسماحك لي بإتمام هذا العمل الصغير. ولقد كان الغلام مريضاً ومتأماً. وفيما أنا منحنية أمسح دموعه أتي ملاك بهي من قبل الملك وأخذه الى المدينة المنيرة. ثم خفضت صوتها وقالت بخشوع: وقد أعطاني الملك رسالة.

فسألها عمران: رسالة من الملك؟ وما هي الرسالة؟

فقلت: نعم إنها رسالة من الملك نفسه وهي: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخواني الأصغر فبي فعلتم".

صمت عمران حينئذ وقد خجل جداً من نفسه. وشعر فجأة باشتياق الى رضاء الملك عليه. ووقع في قلبه رعب عندما لاحظ أن المدينة المنيرة كانت بعيدة جداً عنه حتى كاد لا يري نورها. فهل كان الشيخ مصيباً؟ وهل قذفته كبرياؤه وإهماله الى أيدي العدو؟

قبض عمران على سيفه الذي بقي مدة مرخياً على جانبه وصرخ الى الملك من صميم فؤاده.

الفصل الثالث عشر

الصليب في الوادي

تأسف السائحين جداً عند رؤيتهم عمران يسير في غير سبيلهم. لكنهم قالوا فيما بينهم، أن الملك قد دبر له عملاً أعظم من قيادة شردمة صغيرة من السائحين نظيرنا ولا يحق لنا أن ننتظر مرافقته زمناً طويلاً.

وقال احدهم: ألا تلاحظ أنه لم يعد في المدة الأخيرة مستعداً لإبداء رأيه وتقديم مشورته كالسابق، وأنه كان يسير حزيناً متفكراً.

أجاب رفيقه: نعم وقد ظهر أنه متعبٌ وفاقد للحماس والثقة.

وقال الثالث: إن التسلق الى الأعالي مملٌ جداً. وأما أنا فإنني أحب

السبيل المنخفضة وأفضل أن يرسم سبيلي في الوديان.

وقال آخر: على كل حال فإننا في حالتنا هذه آمنون من الأعداء الذين

يهاجمون المتسلقين الأماكن المرتفعة. ونحن لا نقدر على مقاومتهم إذ اقتحمونا إذ ليست لنا قوة عمران وشجاعته.

وأما عمران فكان حينئذ نازلاً بجزن شديد الى الوادي الذي رسم فيه

سبيله. وكان "القنوط" سائراً بجانبه و"عائلة العليل" متشبثين بكاحليه. وجعل

يجر رجله بثقل وقد فقد كل شجاعته لمحاربتهم ومقامتهم. وتخيل أن الملك

والمدينة المنيرة بعيدان جداً، وأنه لا يستطيع رفع رأسه، وأن سبيله يؤدي به الى

أسفل الأسافل، الى الإذلال والإتضاع.

وتذكر حينئذ كيف كان "هيمنان" ذلك الجندي الصالح ينفر من كل ما

هو شبيه بالمديح ويتجنب الكلام عن نفسه. وكيف حذر بلثيا من نفس ذلك

العدو عندما سئلت مرة عن سبب السلام في قلبها. وتذكر أيضاً القانون الذي

قرأه في كهف الكبرياء الروحية، والذي كان يفرض على جنوده استمالة

الإنسان المتحالفين عليه الى مديح نفسه. وعرف أنه قد خدع نفسه بالظن أنه كان يعمل لتمجيد الملك بينما كان يمجد نفسه.

وتذكر كلمات الشيخ التي أغضبتة في حينها: لا تكدر ملكنا.

أو لم تكدره حقاً. ولأي درجة عمل ذلك؟

وإذ كان يسير نازلاً الى الوادي متفكراً في هذه الأمور شعر باشتياق داخلي لحضور الملك ومعه ولرضاه عليه. وأدرك أن لا أهمية مطلقاً لتمليق الناس مقابل كلمة استحسان واحدة منه. وتأكد من أن هؤلاء الذين كانوا يتقربون إليه لاستماع نصائحه واختباراته قد نسوه الآن، بينما الملك كان لا يزال يحبه ويهتم به مع أنه هو أهمله.

كانت ثقة عمران بملكه وطيدة وعرف أنه لا يزال ينظر إليه بمحبة وشفقة "لولا أن خطاياہ الكثيرة سترته كغيمة من عينيه"، لأنه كثيراً ما قرأ في الدليل: "أنه لا موت ولا حيوة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبله ولا علو ولا خليقة أخرى تقدي أن تفصله عن محبة ملكه".

وعند افتكاره بعظم تلك المحبة وبرأفة الملك وطول أناته عليه تآقت نفسه إليه فصرخ قائلاً: "عطشت إليك نفسي. يشتاقي إليك جسدي في أرض ناشفة بلا ماء" - "كما يشتاقي الايل الى جداول المياه هكذا تشتاقي نفسي إليك يا الله".

ولما بلغ أخيراً أسفل الوادي أبصر صليباً منتصباً في وسط الطريق التي كان ينبغي أن يسير فيها، فطرح نفسه تحت ظله شاكراً. فملاً السلام قلبه وشعر بغفران خطاياہ.

وكان جنود الكبرياء الروحية يتبعونه عن بعد طالبين فرصه لجرحه مرة ثانية خيفة من أن يفلت من قبضتهم. وعند رؤيته ساجداً في أسفل الصليب شعروا بضعف قواهم فانصرفوا لإزعاج سائح مسكين آخر تاركين أحدهم لمراقبته عن بعد.

تزايدت محبة عمران لملكه حتى أصبح لا يهتم ولا يشتاق إلا لعمل مسرته. وتذكر رسالته للفتاه التي اعتنت بالولد الصغير قبل عبوره النهر المظلم. وكان قد قرأها أيضاً في الدليل. فصار يفتش عن الضعفاء والبسطاء من السائحين، ولاسيما المهملين منهم، فيسعفهم وينشطهم. عالماً أنه بذلك يقدم خدمة للملك الذي يحبهم كثيراً.

وقال مرة أحد أصدقائه، وكان قبل عبور عمران وادي الإذلال يستمع له بتلهف: أنه لم يعد يستميل الجماعات إليه كالسابق. أوتذكرون كيف كانوا يسرون بجانبه متلفين لالتقاط كل كلمة تخرج من فيه، وكيف كان أشرف وأعظم السياح مستعدين لإتباعه والتعلم منه؟

أجاب رفيقه: أنك مصيب في ذلك. حقاً إن مستمعيه ليسوا بكثيرين وهو لا يجتذب الناس إليه كالسابق. على إنني أظن أنه أصبح يجتذبهم الى ملكهم أكثر من الأول. فقد رأيت أناساً يتحولون عنه بعد الحديث معه زماناً يسيراً بعيون شاخصة الى السماء وشفاه متحركة بالصلاة.

فقال الأول: أتعني بذلك أنه يحوّل أفكارهم الى الملك عوضاً عن اجتذابهم الى نفسه؟

الثاني: ذلك أكيد. وقد سرت منذ عهد قريب مسافة بجواره وأثرت في أعماله أكثر من أقواله. فإنه لم يكن يفكر في نفسه مطلقاً بل كان يبحث على الدوام عن حاجات الآخرين لإسعافهم. وكان يعمل بهدوء عظيم، ولو لم أكن

مراقباً إياه بانتباه لما لاحظت ذلك. وكان تأثيره فيّ عظيماً حتى إنني انصرفت عنه وحاولت الاقتداء به.

الفصل الرابع عشر

بلاد الإهمال

أما بلثيا وادوا فإنهما سارتا مسافة طويلة في سهل تكسوه الزهور. ولم يكن هنالك تلال للتسلق عليها، ولا هضاب للنزول إليها، بل كان سبيلهما مستويًا قليل الطوارئ. ومع ذلك فإنهما لم تسلما تمامًا من العدو.

فالطيف الصغير المدعو "القلق" تعرض لبلثيا مراراً عديدة وترك آثاراً للجروح على جبينها. وكذلك رفيقه "المتنبئ شراً" فإنه طالما جرّها الى قبضة "القنوط" ذلك العدو المزعج، الذي لم يمكنها التغلب عليه إلا بالمقاومة الشديدة. على أنه كان لها أيضاً أوقات سرور عظيم، وذلك لشعورها بحضور الملك معها.

وقد حاربت إدو الصغيرة أيضاً حروبها. فإن التراخي قاومها مراراً كثيرة وكان يفعل ذلك خصوصاً عندما يراها منعكفة على قراءة الدليل. فإنها عملاً بنصيحة "هيمنان" لها بأن لا تتكل على والدتها في درس الكتاب، كثيراً ما كانت تطالعه بنفسها. ولما كانت معرفتها به قاصرة جداً كان التراخي يتغلب عليها ولا يدعها تتقدم كثيراً في الدرس. وكذلك أيضاً فإن الضجر وسرعة الغضب رفيق لم يتخليا عنها. وكانت تخضع لهما بسهولة مما جعل بلثيا أحياناً تنظر الى ابنتها باهتمام.

ولما بلغت منتصف السهل قابلتا امرأة تسير مع ابنتها فترافقن جميعهن معاً. وسرت إدو جداً برفيقتها الجديدة. وكانت تدعي "ايدن". وسارتا معاً يداً بيد وراء والدتيهما.

وكانت "ايدن" قد اجتمعت باناس كثيرين أثناء سفرها وسمعت أموراً لم تسمعها إدو فجعلت تسرد عليها بعض ما تعرفه فقالت:

"إن الكثيرين من المسافرين الى المدينة المنيرة يختلفون عن والدتي في مبادئهم. والعالم الآن ليس على ما كان عليه عند شروع والدتي في السفر. فلقد توصل الناس الى التفكير بأن الكثير من معتقداتهم القديمة خطأ. مثال ذلك أنه ليس من الضروري أن نختلف في شكلنا عن الذين ليسوا خداماً للملك. وأن كثيراً مما كان محفوظاً حينئذ هو جائز الآن. وأن هنالك طرقاً عديدة للوصول الى المدينة المنيرة. فالآراء القديمة التي سارت والدتانا بموجبها عند شروعهما في السفر يُشك فيهما ولا يُكترث لها الآن. وأما نحن فينبغي أن نسير مع الزمان".

استمعت إدو الى كلام رفيقتها مذهولة. واذ كان احترامها ومحبتها لوالدتها عظيمين استاءت من الفكر بأن مبادئها غير صحيحة. ولما سمّتها "ايدن" بالعتيقة جعلت تكافحها بغیظ. لكنها بعد ذلك أخذت تعاد سماع كلامها شيئاً فشيئاً حتى ابتدأت تفكر في أنه قد يجوز أن يكون فيه شيء من الصحة. وسألتها:

أكثرهم هم الذين يوافقون على هذه الآراء؟

ايدن: نعم كثيرون هم الذين يعتقدون أن أفكاراً كأفكار والدتي غريبة جداً. ثم ضحكت وقالت: ومع ذلك فإن هنالك أيضاً شرذمة صغيرة تظن إنني وأصدقائي قد زغنا عن الصواب. ولقد التقيت مرة بشيخ سار معنا مسافة. فهذا سمع واحداً من ذوي الأفكار الحديثة يناقش والدتي في الموضوع فأخذ يصرخ بغیظ: إنني يا سيدتي سامع صوت العدو في صوت صديقك. وأرجوك أن تنتبهي. ثم التفت الى صديقنا وعنفه شديداً على كلامه وكان يصيح به: انك كاذب. فالطريق واحدة لكل جنود الملك. والسبيل ضيق ومستقيم،

والرأي الوحيد السليم هو الإيمان بالدليل، لا تصديق أو هام الناس. وكان يتكلم بتهيج شديد سبب لي لهواً وتسلية.

ادو: وهل يُدعي هذا الإنسان شسلو؟

ايدن: أتعرفينه إذاً؟

ادو: إنني أعرفه جيداً. وقد عاملني معاملة لطيفة جداً عندما كانت والدتي في وادي الألم وكنت مضطرة الى الجهاد في مقاومة العدو.

ايدن: حقاً إنه إنسان صالح ولا أحد ينكر هذا الأمر. لكنه ضيق الفكر جداً ويفوق والدتي في ذلك. فهو يحسب على ما يظهر أن الذين لا يتفقون معه في كل كلمة لا يمكن أن يكونوا في السبيل المستقيم. الأمر الذي حتى والدتي لا تعتقد به. فهي تفتكر أنه مع أن هنالك حقائق ضرورية لجميعنا، قد يكون هناك أوجه مختلفة لتلك الحقائق، وأن الملك يرشد كل من خدامه في سبيل خاص مع أن الطريق الى المدينة المنيرة واحدة.

ادو: لكن ينبغي أن يكون الجميع موسومين بسمة الملك.

ايدن: أيضاً أُمي تعتقد هكذا. قالت ايدن ذلك متذبذبة كأنها لم تكن هي نفسها مقتنعه به (وكانت ادو تصغي اليها حائرة مرتبكه). ثم قالت: على كل حال فان آراء الناس في كتاب الدليل تختلف بشكل غريب. وبعضهم علي ما يظهر يجتهدون كل الاجتهاد في اقناعنا بعدم صحته.

ادو: انني أعلم ذلك. ولن انسي أبدا ما شعرت به أول مرة سمعت كلاماً بهذا المعنى. ثم سألت باهتمام: عسي أن لا تكوني أنت أيضاً قد فقدت الثقة به.

ايدن: كلا إنما اعتقادي به ليس على ما كان عليه قبلاً، فلا يستطيع الانسان إلا أن يتأثر بما يسمعه.

خَيْلٍ لادو حينئذ أنها سمعت ضحكاً بجانبها فالتفتت ولم ترَ أحداً. فهل كان العدو قريباً؟ ان كان كذلك فلقد أخفي نفسه جيداً. على أنها شعرت نفسها في خطر.

بقيت الابنتان مدة منهنمكتين في البحث في هذا الموضوع. وحادثتا عن الطريق ومالتا عن المسير وراء والدتيهما دون أن تنتبها. وعندما وجدتا أنهما تجوزان أبواباً مؤدية الى بلدة مزدحمة بالسكان اندهشتا جداً. وصاحت ادو يائسة: يا حسرتاه! فلقد تمنا عن الطريق.

وأما "ايدن" فسلب عقلها مرأى الجموع هناك وكانت لم ترا اناساً متجمعين بهذا العدد الكبير منذ زمن طويل، وتراءى لها انهم فرحون وأن العدو لا يضايقهم لأنهم كانوا يضحكون ويتكلمون كمن لا همّ عليهم. وقالت: هل ندخل اليهم. فانه يستحيل أن نكون في خطر منهم أو أن يكونوا في مؤامرة مع العدو ضدنا وهم يكادون لا يلتفون الينا. وهيئتهم تدل على السرور وعدم الاهتمام لشيء. ولما رأت ادو تتراجع الى الوراء قالت لها: تقدي الى الأمام ولا تظهرى جنباً.

فأجابت تلك: اني متأكده أن والدتي لم تجتز من هنا وأنه يستحيل على ان أجدها في هذا المكان.

ايدن: كيف تعملين ذلك؟ وانني واثقه من أننا سنجد في هذا المكان بعض السائحين الذين سيبدلون جهدهم في مساعدتنا في التفتيش عن والدتي. نظرت ادو حينئذ من البوابه الى الداخل، فرأت هناك سائحه كانت قد قابلتها على الطريق فسارت مع ايدن وهي تقول: لا بأس مادامت هذه هنا، يجوز ايضاً ان تكون والدتي مرت من هذا المكان.

وتعجبت لرؤيتها هناك مع كثيرين من الذين كانوا في المرج يستمعون الى الواعظ. على انها لم تطمئن لهيئتهم لانهم كانوا كمن ينوي الاقامة في المدينة وليس كعابري سبيل. وما أزعجها جداً هو انهما لتلك الساعة لم تجدا اثراً لسبيلهما.

وسألت احد المارة وكان حسن لطيفاً: يمكنك ان تخبرنا عن اسم هذا المكان؟

اجاب مبتسماً: هذه مدينة من بلاد الالهمل.

فقلت باهتمام: وهل جميع هؤلاء الناس على الطريق الى المدينة المنيرة؟

اجابها بلطف: انهم يزعمون ذلك.

ادّو: وهل انت مسافر الى هناك؟

فقال هازماً كتفه: اسألني سؤالاً ابسط من هذا. ثم انصرف عنهما.

فاغتاظت منها ايدين وقالت لها: ان الناس لا يحبون ان يُسْتَنْطَقُوا، فتعالى ولا تكوني مزعجه. ودعينا نتمتع بالمكان ما دمنا فيه. أنظري فان هناك اشياء كثيرة للتفرج عليها. ولا شك في كون المكان بهجاً لان اكثر الناس هنا يضحكون.

أجابتها ادّو: اني ايضاً شاهدت كثيرين ايضاً يتشاءبون ضجرًا. على انه فاتها ان تفتح الدليل للبحث فيه عن حقيقة المدينة. واذ كان هناك أشياء كثيرة للتفرج عليها وعدد كبير من الناس للانشغال بهم، وأخذ ذكر المدينة المنيرة يضعف شيئاً فشيئاً. وحينئذ اطمأن من قبلها العدو الذي كان قد أغراهما الى هذا المكان، فتركها الى حين وذهب لاغراء مسافر آخر.

غير ان ضمير ادّو لم يمت فيها، بل كان من وقت الى آخر يستفيق ويحثها على الاستفهام عما حولها.

ومرة سألت رفيقه كانت قد انضمت اليهما: ما الذي يجعل الناس هنا
منسرحي الخاطر دائماً؟

فأجابتها باستخفاف: ذلك لأنهم لا يزعجون أنفسهم بأمر لا
يستطيعون فهمها. فما الفائدة من الاهتمام؟

أدو: لكن ألا يخافون ان اقامتهم زمناً طويلاً في هذا المكان تصدهم عن
الوصول الى المدينة المنيرة.

فقلت: وما الذي يجعلك تفكرين انهم ليسوا الآن على الطريق اليها.
أما أنا فاني أعتقد ان ذهابي الى هناك أمر مسلّم به وان كنت لا أفكر فيه
كثيراً. اننا في هذه المدينة لا نرتكب أغلاطاً كبيرة ولا أظن ان العدو يعمل
كثيراً بيننا. فنحن رزينون محترمون ذو وأخلاق حسنه. وذلك فوق ما يُنتظر
منا. فدعي عنك هذا الفكر في اننا سنبقي خارج المدينة المنيرة الى الأبد.

أجابت أدو حائرة: لكنني أظن ان المسافرين الى هنلك ينبغي ان يحملوا
سلاحاً وها انت بلا سلاح.

فقلت رفيقتها: ان السلام سائد في هذا المكان يا عزيزتي فلا نحتاج الى
سلاح. على انه منذ زمن قصير مرّ من هنا انسان بسلاحه الكامل وكان لا
يلتفت يمناً أويسرة وقال انا السبيل المرسوم له مستقيم. وكان نور المدينة
المنيرة يضيء وجهه فلم نستطع إلا ان نحترمه ونكرمه. ومع ذلك فاننا بعد
ذهابه لم نتمالك عن ان نضحك. لانه ما الفائدة من السلاح في مكان ليس فيه
عدومهاجم؟ وقد قلنا له ذلك فأجاب: مكتوب في الدليل "اصحوا واسهروا
لان ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتصقاً من يبتلعه هو".

ولما سألتها ما هو الزي الذي يرتديه العدو لإيقاع السائحين الغافلين في
الشرك أجاب: ان اسم مدينتنا يجب على هذا السؤال. ثم فتح الكتاب وجعل

يقرأ بصوت مرتفع وهو سائر: "أنا عارف أعمالك أنك لست بارداً ولا حاراً. هكذا لانك فاتر ولست بارداً ولا حاراً أنا مزعم ان أتقيأك من فمي. لانك تقول اني انا غني وقد استغنيت ولا حاجة لي الى شيء. ولست تعلم أنك أنت الشقي والبائس وفقير وأعمي وعريان. اشير عليك ان تشتري مني ذهباً مصفي بالنار لكي تستغني... هنذا واقف علي الباب وأقرع".

فسألته ادو: وهل تعرفين اسم الرجل. فان هذا الوصف يشابه وصف صديقي هيمان.

كلا اني لا اعرفه لانه لم يتوقف عن المسير ابداً حتى عندما كان يراجع الدليل. وكان يفعل ذلك وهو سائر خوفاً من ان العدو يهاجمه ويؤخره في هذا البلاد. وكانت شدة ثباته وكيفية مسيره مما يدعو الى السرور والاحترام. وجميع تصرفاته كانت تدل على عظمة ملكه، وان عمل ذاك يحتاج على السرعة كما قال. وعلاوة على ذلك فانه كان لبق اللسان، اذا تكلم اصغي اليه سامعوه بوقار. وكان تأثيره اثناء مروره في هذه البلاد عظيماً جداً فتبعه عدة أشخاص الى خارج المدينة. على اني كنت اتوقع ذلك وتأكدت من انه لن يقنع بالخروج من البلاد وحده. لانه لم يكن من أهلها ولو كان فيها. ومع ذلك فاننا عنتفكرنا فيه بعد ذهابه، كنا نستغرب شدة اهتمامه بالامر وذلك لمعرفة ان هنالك طرقاً اخرى للوصول الى المدينة المنيرة. أما أنا فأفضل الابطاء في المسير على الحماس الشديد.

فسألته ادو: أتعين بذلك ان السائح لم يستصوب التأخير هنا؟

فأجابته ايدن فوراً: ان سبيله كما تعلمين رُسم على خط مستقيم. واما نحن فاننا لا نزال نبحث عن سبيلنا. وقد يجوز ان نجده في هذه المدينة كما انه

يجوز انا نجده خارجها. وكانت ايدن قد تشربت روح تلك البلاد بأنه لا فائدة من الاهتمام. وحسبت انه ليس من الضروري لهما ان تجدا سبيلهما في الحال. لم تفتنع ادو من كلام رفيقتها واضطربت في داخلها لكنها لم تجب شيئاً. وكثيراً ما كان الفكر في والدتها يعرض لها حتي في وسط الملذات المتعدده في تلك المدينة. ومع انها كانت احياناً تلعب وتضحك مع رفاقها كأن لا هم لديها، فانها ابتدأت تسائل نفسها حائرة: لماذا تركها الأعداء؟

وصديء سيفها واكمد لون سلاحها فأكدت لها ايدن بأنها ليست في حاجة اليه في ذلك المكان. ومع ذلك فانه لم يهدأ لها بال وكان شوقها الى حضور الملك معها عظيماً وصارت تتوق الى مرأى المدينة المنيرة والى الاجتماع بالسائحين الذين يقصدونها حقاً. وابتدأت تتفرس بتلهف في أوجه المارة علها تجد واحداً من هؤلاء بينهم. فكان الفشل نصيبها مرة بعد الأخرى.

ولم تعرف ادو ان الذين يعزمون عزماً ثابتاً على السفر الى المدينة المنيرة لا يقيمون في بلاد الإهمال مطلقاً. وعندما كانت تسأل بعض السكان إذا كانوا على الطريق الى المدينة المنير، كانوا يجيبونها متعجبن من هيئة الاهتمام البادية على وجهها:

- هذا موضوع لا يهمننا ونحن هنا لكي نتمتع بالعيش وليس لنا وقت للتفكير في هذا الامر.

والبعض كانوا يقولون: "لنأكل ونشرب لاننا غداً نموت".

شعرت ادو ان المناص الوحيد لها هو ان تحمل ايدن اذا امكن على مغادرة تلك البلاد المحتشدة بالسكان والذهاب معها للبحث عن سبيلهما الى المدينة المنيرة. فانها لم تكن لديها شجاعه كافية للذهاب وحدها، عدا عن انها كانت تلتذ بعشرة ايدن، وخافت انها لذا لم تأخذها معها لا تعود تراها.

وأما ايدن فكانت حينئذ غارقة فيما حولها من الملذات غير مستعدة لترك مقرها. ولما حاولت ادُّو اقناعها بأن الطريقة الوحيدة المستقيمة والمعقولة لهما هي مغادرة بلاد الالهمال أجابتها: لنا وقت كثير بعد. مع انه لا بد لنا من الذهاب ذات يوم إلا اني لا أنوي عمل ذلك الآن.

وقالت ادُّو متنهدة: اني أشعر بوحشة هنا في هذا المكان.

اجابتها: أتشعرين بوحشة هنا فما الذي تريدينه؟ اني أخشى اننا مختلفتا المزاج. فأنت في طبيعتك تحبين الاتكال على الآخرين ولا تسرّين بالحرية. وما كان ينبغي ان تفارقي أمك. ولو كنت مكانك لذهبت للتفتيش عنها. ومن ثمّ كنت تتبعتها خطوة بخطوة. ولا أظن انه يهنأ لك عيش ما لم تفعلني ذلك. قالت ايدن هذا وضحكت بتهكم.

أجابت ادُّو متدمرة: اني لا أتجاسر على الذهاب كما اني أخشى البقاء هنا. فقال ايدن: بل هذا ما أقوله، وذلك انه ليست فيك شجاعة لاختيار طريق تسلكينها.

لذعت هذه الكلمات ادُّو فقالت مدافعة عن نفسها: ليس البحث الآن في: هل أنا قادرة اوغير قادرة على اختيار طريق أسلكها، بل في كوني تبعتك وغادرت أمي. ولست أدري لماذا فعلت ذلك، فان أمي لم تضلني ابداً عن الطريق المستقيم.

ايدن: اذاً الافضل لك ان تذهبي. وسأجد صديقة أشد اقداماً وجرأة منك، ولا تفكر في أمور مزعجة على الدوام كما تفعلين انت. عدا ذلك فاني أدرك الآن اني قد أخطأت من حيث معرفة نفسي في الماضي. والمبادئ التي تحبين إتباعها هي مقيّدة وأنا احب الحرية. فبلاد الالهمال توافقني اكثر جداً من

المدينة المنيرة. ولقد اصبحت أشك في اني كنت على الطريق اليها. ولا أظني كنت إلا تابعة لأمي.

أدو: أتعنين بذلك انك تنوين البقاء هنا والعدول عن الذهاب الى المدينة المنيرة وملكها؟

ايدن: وكيف تعرفين ان هناك مدينة منيرة وملك؟

أجابت أدو برزانة: لا شك في ان العدو قريب جداً وانه هو الذي يجعلك تتكلمين هكذا، فأرجوك ان لا تدعني له. فهو لا محالة يطلب اهلاكك.
ايدن: انك تهذين ايتها الابنة. ومن هو العدو؟ فانه ليس في هذه الايام من يعتقد بوجود ابليس. ومجرد ذكر اسمه يدعو الى الضحك. وبالْحَقِيقَةَ لوتكلمت مع سكان هذه المدينة كما تتكلمين معي الآن لحسبوك مختلفة. وان أقل الناس تهدياً لا يفكر فيه وما هو إلا شخص خرافي.

فقال أدو بصوت حزين: وهل تعلّمت كل هذا مدة اقامتك هنا؟

ايدن: نعم واكثر كثيراً من هذا. فاني عملت أموراً تقنعني بأنه ضرب من الجنون ان نترك ملذات هذه البلاد ونجري وراء أحلام كما تفعلين.

أدو: اذاً هذا مما يدلني على عظم الخطأ الذي ارتكبته بمجيئ الى هنا. وان كان هذا ما يقولونه في هذه البلاد فليست هي مقرأً يليق بخادمة للملك. قالت أدو ذلك وفي نغمة صوتها وهيئة وجهها ما دلّ على رزانة وعزم ثابت مما جعل محبة ايدن لها تزداد لان ذلك كان فوق ما كانت تنتظر من صديقتها الصغيرة الخجول فقالت لها بالحاح:

- اطرحي عك هذه الوسوس ودعينا نتمتع بلذة العيش، فاني

سأفتقدك ان ذهبت.

أجابتها أدو والدموع ملء عينيها: يصعب جداً علىّ تركك في هذه المدينة، ولكن فكري كيف تكون حالنا لو رُفضنا أخيراً من المدينة المنيرة.

أيدن: أري انك جادة في الكلام. ولا شك في أن أهل هذه البلاد مصيبون في قولهم ان المسافرين الى المدينة المنيرة مزعجون جداً. فهم لا يرضون بالأمر كما يجدونها ولا يقبلون أحوال الناس على علاقتها بل دائماً يحاولون انقاذهم من الهلاك كما يزعمون. فلماذا لا يدعون الآخرين يعتقدون كما يريدون. وما دام الناس يشعرون انهم سعداء فلماذا يقلقونهم.

ادو: إنه من الطبيعي أن يكون هذا شعورهم مادام لك ايمان حقيقي بشيء. لكن لو كنت متأكدة من أن هنالك مدينة منيرة وان الذين لا يطيعون دعوة الملك يُمنعون من الدخول اليها أخيراً لكنت خلاف ما أنت عليه.

أيدن: انطلقى إذا أيتها المؤمنة الصغيرة واسعي لخلاص الآخرين. انما أرجوك أن لا تهتمي خلاصي. وإذ قالت ذلك أحنت رأسها وانصرفت عنها ضاحكة. وفهمت إدو حينئذ ان لا فائدة بعد من الكلام وانه لا بد لهما من الافتراق.

وإذ أصبحت وحيدة منفردة لا رفيق لها في تلك البلاد شعرت بوحشة عظيمة. لكنها عرفت ان توانيها هو الذي أوصلها الى تلك الحالة، وأنها الملوثة في الأمر. وعزمت على مغادرة المكان والرجوع في الحال. ولما كانت الشوارع مزدحمة بالرجال والنساء لم تجد سبيلها بسهولة وكان تفهقها بطيئاً. لكن ما كادت تترد راجعة بعزم الى الورا حتى خيّل لها انها ترى على مسافة بعيدة جداً شعاع نور منبعث من المدينة المنيرة.

وخاف العدو الذي كان يراقبها مدة من اضاعة فريسته فتعقبها. وأحاطت بها "عائلة العليل" لصدّها عن المسير وجعلوا يصرخون في أذنيها:

- ما الفائدة من محاولة الخروج من هذه البلاد بعد أن تعودت على طرقها وقد لا يمكنك لقاء أمك لانك لا تستحقين ذلك. وهل تنتظرين ان الملك يرحب بك بعد أن صرفت كل هذا الزمن في اللهو في بلاد العدو؟ انه لن يفعل ذلك أبداً. وانك لن تتخلصي قبل سنوات عديدة من علامات البلاد اللاصقة بك. وبعبارات كهذه بذلوا جهودهم لردها الى الوراء واضعاف عزمها.

ولما وصلت الى البوابة للخروج من المدينة فاجأها العدو الكبير "الشك" وجعل يقذف سهامه في وجهها فأعماها الى حين. وبقيت مدة لا ترى أثراً للمدينة المنيرة وأخذت تساءل نفسها: هل كان هنالك صحة في قول ايدن انها تتبع احلاماً وسراباً؟ لكن شدة شراسة العدو في غارته جعلتها تصرخ الى الملك بلا انقطاع. وكانت تفعل ذلك وسط السهام المتقاذفة عليها عالمة ان رجاءها الوحيد هو في الملك الذي لا بد من أن يعينها. ولما لم تُمنح جواباً في الحال هتفت قائلة: ان مت، فسأموت صارخة الى الملك من أجل الرحمة والمعونة. أخيراً سمعت فوق عاصفة القتال صوتاً منخفضاً يقول: "من يقبل الى لا أخرجة خارجاً". فرفعت بصرها ورأت نوراً مشرقاً عليها، هو نور المدينة المنيرة. فخرت على ركبتيها وسجدت للملك. ولما رآها العدو في تلك الحالة انسل عنها خائباً.

الفصل الخامس عشر

المرثمون

خرجت أدو من بلاد الالهمال وسلكت السبيل الذي رسم لها. ولم يمض
إلا اليسير من الزمن حتى سمعت نشيداً بعث فيها روح الشجاعة والسرور
وعند مجيئها الى منعطف الطريق مرت جماعة من السائحين سائرين في نفس
السبيل فمشت ورائهم لسماع كلام نشيدهم:

يا زمرة الحجاج ما أهنأ المسير
ان تتعبوا يسوعا رثينا الخطير
يا معشر الحجاج الى السماء انظروا
تلك جعالة اذا اليسير تصبروا

ولما سكت هؤلاء سمعت آخر يرثم:

قلبي سروراً طافح والحزن لا يدرى
نور سماوي به يفيض مع بشر

ولم تكن لأدو معرفة سابقة بهذه الكلمات لكنها عرفت ان الصوت
صوت شسلو. فركضت اليه قائلة، اني مسرورة جداً برؤياك يا شسلو.

والتفت اليها ذاك بوجه مملوء بالفرح الهادي، وكان قد اعتراه تغيير
كبير حتى انها ما كانت لتعرفه لولا صوته. فانه كان وجهاً مشرقاً لطيفاً قد
دمته التأديب. وقالت له: لم أكن أعلم انك تحسن الترتيل.

أجابها: لم أتعلم الترتيل إلا مؤخراً. فاني اجتمعت بهؤلاء الناس الصالحين
في المدينة المنيرة، وانه من المناسب تعلمه أثناء السفر ومنذ فعلت ذلك صرت
أجد سهولة عظيمة في مسيري. ومن الغريب اني لم ألاحظ قبلاً ان الدليل
أيضاً يأمرنا بالترتيل والابتهاج.

إدو: وهل محبة الملك للترتيل عظيمة بهذا المقدار حتى كتب عنه في

الدليل؟

شسلو: ذلك أكيد. ولم أكن أعرف ايضاً ان السرور فرض على كما انه سبب سعادة لي، إلا بعد أن قرأت العبارات التالية في الكتاب: "أفرحوا كل حين" "لان فرح الرب قوتكم" "أمسرور أحد فليرتل". فياليتني عرفت هذا قبلاً.

إدو: ولماذا؟

شسلو: ذلك لسببين: أحدهما ان للترتيل تأثيراً عظيماً في السفر كما ذكرت قبلاً. لان العدو لا يجب سماعه فيبتعد عن المسافر. ولا أظن ان شيئاً يجعله يفشل مثل سماعه جنود الملك يرنمون ترانيم المدينة المنيرة. فاذا تراءى لي انه قريب مني يلتمس اخضاعى اصرخ قائلاً: "ليتمجد اسم يسوع" فينسل هارباً في الحال. ويخال لي ان قهر الجندي العابس أسهل عليه من قهر الجندي المرتل. ولقد كانت هذه قاعدة مطردة على مدى الأزمان.

إدو: وكيف تعرف ذلك؟

شسلو: اني قرأت قصة في الدليل عن جيش من جيوش الرب خرج لمحاربة عدوقوي وتغلب عليه بالترتيل.

إدو: وما هو السبب الآخر؟

شسلو: هو كونني أشعر اني كثيراً ما سببت ضرراً بعبوستي. فان كثيرين من الاحداث الذين كان في امكاني مساعدتهم كانوا يفرون عند رؤيتي قادمماً اليهم. لانني كنت انتقدهم وأدينهم بعنف حاسباً ان ذلك فرض على. فلو رأني هؤلاء مرتلاً لكانوا على الأرجح نالوا عوناً في سفرهم. فان

الاحداث عموماً يحبون الموسيقى والسرور. وهناك أيضاً سبب ثالث كنت قد سهوت عنه وهو أهم من الاثنين.

إدو: وما هو هذا السبب؟

شسلو: ان التلميذ يشهد لمعلمه والرعية تشهد لملكها. فاذا رأى الناس جنود وخدام ملك المدينة المنيرة العظيم منشرحي خاطر فرحين، فهموا طبعاً ان خدمة ملكهم تجعلهم هكذا. وحقاً يا ابنتي اني اخجل جداً عندما أذكر ان الناس كانوا لا يشاهدوني إلا منتقداً صارماً عابساً غضوباً. فتباً لها من شهادة ملكي. أما الآن فعلياً أن أبتهج أكثر من جميع خدامه.

إدو: ولماذا.

شسلو: ذلك لانه غمرني بلطفه. فاني ارتكبت أغلاطاً كثيرة وسببت ضرراً عظيماً أثناء سفري. بل اني شككتُ مرة في صدق محبته ظاناً انه نيسيني ومع ذلك فانه طيلة الوقت ظل يرمقني بعيني الرحمة والرافة. وأخيراً أرسل صديقي عمران ليذكرني بذلك. فأنا أولى جميع الناس بالفرح والشكر.

إدو: أظن أنه ينبغي أن أتعلم الترتيل أنا أيضاً؟

شسلو: ذلك أكيد. اوليس لك ما تشكرين عليه؟ وأذ تكلم زحف عدو من الحشيش عند قدميه وتطلع في وجهه.

أجفل شسلو وذهل عند رؤيته لانه لم يكن يتوقع عدواً. وتفرد فيه واذا هو "الاعتداد بالنفس". فاستل سيفه وهتف قائلاً "ليتمجد اسم يسوع" وعند سماع العدو هتافه ورؤيته انسل عنه هارباً.

والتفت شسلو الى إدو وسألها: رأيت هذا العدو؟ اني أعرفه وأعرف رفاقه منذ زمن طويل، لكنه قلما أزعجني قبل أن تعلمت الترتيل. ولا أذكر اني قابلته كثيراً في الأيام القديمة. وأظنه يكره جداً ان يسمعي اسبح الملك.

وهو ينتهز كل فرصة يجدها لتحويل تسيحي الى غايته. واني أري أنه ينبغي لي أن أكون على حذر دائم منه.

إدو: انني لم أر العدو، لكن لماذا هاجمك بينما كنت تساعدني؟

اجاب شسلو مفكراً: ربما ذلك لأنني كنت أساعدك او بالبحري لأنني كنت أتكلم عن نفسي. فان انسب فرصة يجدها العدول مهاجمتنا هي عندما يسمعنا نتكلم عن انفسنا. وقد نضطر ان نخاطر احياناً ونفعل ذلك لفائدة الآخرين، غير انه يجب ان نحرص حينئذ لئلا تكون غايتنا الأولى في الكلام المجد الذاتي ومديح النفس. انظري فان ما يقوله الدليل في هذا الصدد صحيح كله: "القلب أخدع من كل شيء وهو نجس من يعرفه".

إدو: انك على ما أظن صالح جداً ولا حاجة لك لأن تحرص من العدو بهذا المقدار.

اختلفت هيئة "شسلو" عندئذ وقال ناظراً اليها بعبوسة: لا تعلمي عمل العدو. فلقد عجز الآن عن اغوائي وهو يحاول عمل ذلك بشفتيك فاياك والتمليق.

ذهلت إدو لكلامه ولم تتمالك عن ان تقابل شدة غيرته بالاهمال التام الذي شاهده في البلاد التي كان فيها. وكذلك أيضاً فانها رأت فرقاً عظيماً بين السلام والفرح والطمأنينة البادية بجلاء في وجهه، وبين السرور المصطنع الذي كان يبدو في وجوه السائرين في تلك البلاد.

ووجدت " إدو " أن الأناشيد التي أنشدها السائحون لم تكن جميعها عن المدينة المنيرة رأساً، بل كان بعضها عن جمال الطريق والزهور التي انبتتها الملك، والأشجار التي زرعها لتظليلهم. عن الجو المتقلب فوق رؤوسهم والرياح ذات الروائح المعطره حولهم. عن النجوم والشمس التي خلقتها للإضاءة لهم وعن

البحر الدائم الحركة وعجائب الطبيعة بأسرها. وكانوا أيضاً ينشدون عن جمال المحبة وأعمال الشجاعة وعن خواطر لا يعبر عنها بالكلام. ولما أظهرت تعجباً من بعض ما كانت تسمعه ذكرها "شسلو" بكلمات الدليل: "عظيمة هو أعمال الرب. مطلوبة لكل المسرورين بها".

اندهشت " إدو" جداً من هذا التغيير العظيم في صديقها. فان كلامه دل على لطف ورحابة صدر بخلاف ما كان عليه سابقاً. وبعد أن كان يحسب الجميع على خطأ وضلال في مذاهبهم، صار دوماً يعترف أنه هو المُخطئ، ناسباً حسن النية للآخرين بينما كان غيره يجد صعوبة في عمل كهذا.

ومع ذلك فان أعداءه القدماء كانوا احياناً يتغلبون عليه فيأخذ فجأة يعترض السائحين بحدة وسط ترتيلهم متهماً اياهم انهم لا يتقنون اللحن أو يسرعون كثيراً بحيث لا يستطيع المنضمون اليهم حديثاً اللحاق بهم، أو يستعملون لحناً غير موافق لكلماتهم. وكثيراً ما كانت حدة طبعه تسري الى رفاقه فلا يفتن لنفسه إلا بعد ان كان قد سبب النزاع بينهم. لكن عندما كان يصدر منه عمل كهذا يعترف بخطأه متضعاً، فينصرف عنه العدو عالماً ان اعترافه هذا السريع كان يجعل الذين قد انقادوا اليه ينجلون من أنفسهم، ويعكفون بعد ذلك على مقاومة العدو بشدة، غير تاركين سبيلاً لغيره من الأعداء للدخول بينهم.

وقالت " إدو" ذات يوم: اني يا شسلو أود ان اتعلم الترتيل فهل لك ان تعلمني؟

أجاب: كلا وانما ينبغي ان تطلي ذلك من الملك لاننا لا نستطيع الترتيل ما لم يعلمنا ايه بنفسه.

لما اجتمعت "إدو" بوالدهما بعد ذلك كانت قد تعلمت الترتيل.
وحسبت تلك ان صوت ابنتها اجمل صوت سمعته. ولم تكن الوحيدة في رأيها.
بل ان الكثيرين من المسافرين الى المدينة المنيرة كانوا ينشطون في سيرهم عند
سماعه. وبعضهم من الذين سقطوا على الطريق وبلغ اليأس منهم أشده بسبب
ضغط العدو عليهم، كانوا يرفعون رؤوسهم لترتيلها. وآخرون، من الذين
كانوا على وشك الميل عن الطريق المستقيم، كانوا يتراجعون بحزم من وجه
العدو الذي جرّبهم. فانها كانت ترتل عن محبة الملك العجيبة وعن موته من
أجلهم وعنايته بهم كل حين. وعن مجده وبهاء المدينة المنيرة التي يقصدونها.
وكذلك ايضاً انشدت عن مجيئ الملك الذي كانت حينئذ تنتظره برجاء عظيم.
وهناك ما كانت تنشده في هذا الصدد:

انت يا فادي آت انت آت يا مليك

في انقضاء الدهر فوق السُّحْبِ في مجدِ ابيك

سوف نشدوا اذ نراكا فوق افقِ المشرقِ

انه يوم سرورٍ منيةُ القلبِ التقى

وفيما كانت ذات يوم سائرة بجانب أمها ممسكه بيدها. انفصلت تلك
عنها وخطت وحدها الى الأمام الى نهر يجري في سفح جبل. ولم تكن "إدو" قد
انتبهت اليه. لكنها لم تلبث ان أدركت الحقيقة فصرخت برعب: أماه! أماه!
والتفتت اليها تلك بوجه مبتسم ثم أشارت بيدها مودعة وخاضت المياه
بينما كانت شفتاها تتحركان بالتسييح.

أما "إدو" فكفت عن النشيد وسقطت الى الأرض. وبقت لا تبدي
حراكاً زمنياً طويلاً وقد بسطت يديها بائسة واختبأ رأسها في الحشيش المرتفع.

وفيما هي على تلك الحالة سمعت بغتة صوت السائحين يرتلون من وراء
الجبال:

يا موطن الأبرار	يا أهبج البلدان
يا منية الأخيار	يا أطيّب الأوطان
إلى حمى السلام	يسوع قُودنا راحماً
انت على الدوام	مبارك ممجّداً

فشفت هذه الكلمات الجميلة قلبها وجلبت اليه التعزية شيئاً فشيئاً. ولم
يمض زمن حتى سُمع صوتها الحلويّين في وادي الظلال الذي كانت سائرة
فيه. ولم يمكنها بعدئذٍ انت تكفّ عن الترتيل حتى وسط الظلام لان الملك
نفسه علمها إياه.

الفصل السادس عشر

ضفة النهر

أما سبيل عمران فكان حينئذ على حافة نهر يجري في وسط وادي الظلال. وكان في ظلاله كثيرون ينتظرون حارس الملك لينقلهم الى الضفة الثانية. فجعل يتجول بينهم يذكرهم ما استطاع بمحبة الملك لهم ورحمته.

ولم يعد يجد وقتاً للتفكير في الأخطار والصعوبات التي كانت تعرض له فسلم نفسه الى عناية خالقه وملكه الأمين. وأحاط به جيش غير منظور من الملائكة. فردّ عنه العدو مراراً عندما كان منهمكاً في تغذية الآخرين.

وبالرغم من ذلك كان بعض الأعداء الذين يكرهون رؤية الجنود مكرّسين ذواتهم لخدمة الملك يضغطون عليه أحياناً:-

فانه عندما كان بعض السائحين السائرين في وادي الظلال يجتازون دون أدنى التفات الى الأشقياء الذين على ضفة النهر، كان ينقدهم ويدينهم على محبة ذواتهم. ناسياً انه هو أيضاً كان سابقاً منهمكاً كل الانهماك بحاجته الروحية بحيث لم تكن عيناه تريان حاجة الآخرين.

ولما كان بعضهم يبذلون وسعهم في مساعدة الغير، لكن ليس بحكمة لا للفائدة بحسب زعمه، كان العدو المدعو "التسرّع" يسطو عليه ويلقيه الى الأرض. ولكي ينجومنه كان لابد لعمران من ان يذكر في كل آن كلمات الدليل: "لا تدينوا لكي لا تدانوا" - "من أنت الذي تدين عبد غيرك. هو لمولاه يثبت أو يسقط".

وكان اذا أحسّ بهؤلاء الأعداء يستلّ سيفه ويصرخ الى الملك الذي لم يكن ليتأخر عن سماعه واستجابته.

وكان صوت عمران آخر صوت سمعه الكثيرون من السائحين قبل عبورهم النهر.

وبعد ان سار مدة في وادي الظلال سمع فجأة صوتاً يدعوهُ خفق له قلبه ورأي غابريلا واقفة على ضفة النهر وقد تغيرت تماماً عما كان يعهدها. ودلّ اصفرارها وشدة ضعفها على انها في نهاية سفرها. ودهش لرؤيته في وجهها نوراً ذكره بالنور الذي رآه في وجه هيمان عند اجتيازه النهر. ولما قبض على يديها قالت له:

- انك لم تنتظر الاجتماع بي في سفرك يا عمران. لكن عندما رأيت انك جاد في الأمر ولم تعدل عن السفر الى المدينة المنيرة حتى من أجلي، تأكدت انه لا بد من الصحة لما يدّعي البعض انه خرافة، ولم أجد راحة بعد ذلك حتى شرعت في السفر أنا ايضاً.

عمرن: وماذا جرى لدسمند؟

غابريلا: انني لم أتزوج به أبداً، ولم أستطع عمل ذلك بعد ان تعرّفت بك مع ان والدي بذل جهداً لإقناعي. وقد قلت لك انني مزمعة على الزواج به لإغاظتك فقط. والحقيقة هي انني لم أجد راحة حتى اجتزت من الباب الشرقي. لكن أواه فقد كانت مدة سفري قصيرة جداً. فانه لم يمض سوى بضعة أسابيع منذ شرعت فيه، وها أنا على وشك عبور النهر. فليس هذا بوقت كافٍ لظهور إخلاصي للمكي. وكيف يمكنني ان اتحقق انه يقبلني بعد ان تغافلت عنه كل هذا الزمن. وانني أشعر ان الشك يعمل ما في إمكانه لاختطاف نفسي منه.

رفع عمران حينئذ بصره فرأى صليباً ملقياً ظلّه على طول النهر، كان كما ايضاً عند عبور هيمان فقال: ينبغي ايتها العزيزة ان تجوزي تحت الصليب كي يفارقك الشك.

فسألته بصوت ضعيف: وهل الصليب لي؟

أجاب: انه لك، كما انه للجندي الذي قد حارب سنوات عديدة تحت راية الملك.

فرجته قائلة: ساعدني كي أصير تحته. فرفعها بلطف وقربها اليه. ولما صارت تحت ظلّه بدا سلام في وجهها، وقالت ان قدمي قد لمستا حافة النهر فيا لبتك تأتي معي.

عمران: اني لا أفارقك حتى يستلمك الملك. وإذ قال هذا سقط رأسها على صدره وسمعها تتمتم: أمتيقن أنت اني في ظل الصليب؟

عمران: نعم وها كلمات الملك نفسه: "وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي ان يرفع ابن الانسان لكي لا يهلك كل من يؤمن به بك تكون له الحياة الابدية" - "ان المسيح يسوع جاء الى العالم ليخلص الخطاه".

غابريلا: اذاً قد جاء ليخلصني أنا ايضاً. قالت هذه بصوت ضعيف يكاد لا يسمع. وأضاء شعاع من المدينة وجهها فرفعت رأسها فجأة وقالت: انه الملك وهو يناديني. فأفلتها عمران من بين ذراعيه ورآها تحوض الماء البارد وقد بسطت يديها كما الى شخص غير منظور.

وقف عمران جامداً لا يبدي حراكاً. ثم انقض عليه "العصيان" لأول مرة في حياته ورماه بسهامه فأسقطه فجأة الى الارض. ووقف فوقه فلم يقو على القيام. وكاد يحجب المدينة المنيرة من عينيه بظله الكثيف القاتم. وكان يعمل بنشاط عظيم حتى بات عمران في قبضته غنيمة باردة لا يبذل همّة

للتخلص منه. وأصبح لا يقدر على التفكير إلا في تلك التي ما كاد يجدها حتى
خسرها وحنقَ في قلبه متذمراً من السبيل الذي فرض له ان يسلكه وصاح
قائلاً: اني لا أستطيع العيش دون "غابريلا".

كان عمران قد نجح في طرد "غابريلا" من أفكاره، وظن ان محبته
العميقة لها قد تلاشت، ولا يمكن ان تعود بعد. وأما الآن وقد اجتمع بها ثانية
وسمع صوتها ونظر الى عينيها الجميلتين ووجدتها أجمل بأضعاف مما كانت عليه
في الماضي، فانه تمرد على ملكه ولم يخضع لارادته. واستسلم الى العصيان دون
أدنى مقاومة. وتخيّل له ان قواه تلاشت ولذته في العمل فقدت وانه لا يستطيع
فيها بعد ان يسلك السبيل المرسوم له.

وفيما هو على تلك الحالة سمع فجأة صوت ترتيل على بعد منه:

ان كان ربي ناصري
على إن جيش يقيم
فلطفه يحيط بي
لا أرهب الشرّاً
يروم بي أمراً
ويدفع الضرّاً

وكان ذلك صوت جماعة السائحين المرمنين في الأعالي فوق وادي
الضلال. وبينهم "ادو" و"شسلو".

وعند سماعهم انتفض عمران وقفز الى الأمام مستلاً سيفه. وجعل
يحارب بقوة ملكه صارخاً اليه من أجل الغلبة. فدهش العدو من ذلك وفهم ان
ذلك الجندي الذي ظهر له ضعيفاً عاجزاً قد صمم على الغلبة. فأخذ يتراجع
عنه شيئاً فشيئاً الى ان وجد فرصه للانهمزام.

وعاد عمران الى عمله في وادي الضلال ثانية وكان اذا فكّر في عبور
غابريلا الى المدينة المنيرة شعر بأن المدينة أصبحت أقرب اليه من ذي قبل، وان

غابريلا رغباً من النهر الفاصل بينهما، صارت أقرب منه مما كانت وهي في
مدينة الظلام.

الفصل السابع عشر

الى أن يجئ

كان سبيل عمران حينئذ في وسط سهل أجرد خال من الأشجار. على انه كان أحياناً يصادف مراعي خضراء وماء راحة ينتعش بها فيروح النفس من سفره الممل. وكانت له فرصة للاتصال بملكه. واذ لم يطرأ عليه حادث ذو شأن استطاع أن يتعلم دروساً في الصبر والاتكال، دروساً يصعب تعلمها في وسط المعارك الشديدة.

ولم يمض وقت طويل حتى جاء الى مدينة دلت هيئة سكانها على تعاسة عظيمة لم يشاهد مثلها من قبل. ولما سأل أحدهم عن اسمها حذق ذلك فيه وقال بغيظ وشراسة: في مدينة اليأس. وما عليك إلا ان تنظر ما حولك فتعرف اسمها.

ولما ابتداء عمران يتجول في تلك المدينة راعه منظر كل ما رآه.

فبعض السكان كانوا جالسين على جانب الطريق ساندين رؤوسهم بين أيديهم يمثلون التعاسة بكاملها. وآخرون كانوا مستغرقين في النوم وأطراف صغيرة تحوم فوق رؤوسهم وعند أسفل أقدامهم، تنتظر حتى اذا ما أبدوا حراكاً وفتحوا عيونهم سقطتهم مخدرات تسكنهم فيعودوا الى النوم. وكان البعض يهيجون ويصيحون في الشوارع بينما كان آخرون يتفرجون ويضحكون عليهم بصوت عالٍ وفي ضحكهم رنة خاوية تدل على تعاسة أشد من التعاسة التي دل عليها انتحاب رفقائم.

ولم يكن عمران الوحيد الذي دخل مدينة اليأس من جنود الملك، بل كان قد سبقه اليها آخرون. وهؤلاء نظيره شعروا بروعها وتعاسة سكانها. وكانوا حينئذ في نضال عنيف مع جنود الشر الذين استعبدوهم.

وسأل عمران: ما عسى ان يكون هذا؟ اني لا أفهم شيئاً من كل ما يدور حولي.

أجاب أحد رفاقه: إن في هذا المكان مئات من الذين لم يسمعوا شيئاً عن ملكنا ومن الذين سمعوا ولم يريدوا ان يفهموا. وها ابليس وملائكته يبدلون وسعهم في سد أذانهم واحقاد أنفاسهم كي يناموا نوم الموت ولا يسمعوا البشارة المفرحة. ولقد أرسلنا الى هنا كما ارسلت انت أيضاً كي ننشر هذه البشارة ونحارب العدو المهلك هؤلاء الناس روحاً وجسداً. والنضال طويل عنيف وعلينا ان نسهر ونصلي ونكون في صلة تامة مع ملكنا. فان العدو اذا رآنا عاكفين على تحرير من استعبدهم ينقض علينا فجأة لتمزيقنا. وان أعظم فخر يمكن الانسان الحصول عليه هو ان يدعى الى العمل في هذه المدينة لانها في جبهة القتال. ولكن أذكر ولا تنس انه ينبغي أن تصلي وأن تصلي على الدوام.

تاقت نفس عمران لإخبار السكان عن المدينة المنيرة وملكها وأخذ يطوف الشوارع مديعاً البشارة السارة لكل من رآه. وكان البعض ينظرون اليه بعيون بائسة ويصرخون هازين رؤوسهم: لقد فاتنا الوقت.

فيجيبهم: لو كان الملك يظن ذلك ولا يشاء قبولكم، لما كان أرسلني اليكم.

وقال له آخرون: أتركنا أيها الانسان فاننا لا نرغب في اكتشاف ما قد خسرناه. ونحن قد اخترنا لنا سبيلاً ينبغي ان نثبت فيه.

وكان بينهم من لم يسمعوا قط عن الملك وعن رحمته. فهؤلاء كانوا يقولون ضاحكين وغير مصدقين كلامه: لو كانت حكاياتك صحيحة لكانا

أخبرنا عنها الآن. فانه لم يخبرنا بها أحد قط. وهل يجوز ان اناساً قد عرفوا
بشارة سارة كهذه لا يهتمون ان يجيئوا الينا لنجدتنا في شقاوتنا اذا كانوا
يعتقدون صحتها؟

لكن عمران كان حيناً بعد حين يجد بين سامعيه من أظهروا رغبة وشوقاً
شديدين لمعرفة الحق وسماع البشاره المفرحة. فعرف أن سعيه لم يكن باطلاً،
وكان يخبرهم عن الملك العظيم الذي مات على الصليب لخلاصهم وانقاذهم،
ويساعدهم على التغلب على العدو بالاشتراك معهم في الصلاة راعياً على
ركبته.

ووجد النضال طويلاً وعنيفاً كما كان قد أنبأه الجنود رفاقه. وكان في
حاجه الى كل قواه كيلا يتراجع الى الوراء أمام الأعداء الذين يهـمسون في
أذنيه ملتـمسين اسقاطه:—

— ان النضال عنيف فلا تنهك قواك بل اشفق على نفسك ولا تخاطر
بها ودع الآخرين يقومون بالعمل.

فيقول الكبرياء فيه: يجب ان تثبت في عملك ولوتركه الجميع. فأنت
أعظم نجاحاً وليس منهم من يجهد نفسه مثلك، والذين يستمعون لك لا
يعيروهم اذناً مصغية. ووجد عمران التغلب على هذا العدو أصعب من التغلب
على سواه. وعرف أنه أعظم خطراً لأنه اذا تمكن من اغوائه على أن يعمل
لغاية نفسانية وليس طاعة للملك أتلف عمله.

وكان القنوط أيضاً يتلمس الاستيلاء عليه فيقول: كفّ عن العمل ولا
تجهد جسدك باطلاً. فإنه لا فائدة من السعي بين اناس قد بلغ الشر منهم
أشدّه.

اقتحم كل هؤلاء الاعداء "عمران" أثناء عمله خصوصاً عندما كانوا يرونه مجاهداً لحل قيود من استعبدهم ابليس. وكانت صدماتهم تأتيه من حيث لا يدري ولم يقو عليهم إلا بالدعاء المستمر الى ملكه.

واستعمل العدو ايضاً أصدقاء "عمران" لتجربته دون ان يشعر بذلك:-
كان عمران أحياناً يندهش لرؤية بعض اصدقائه الذين دعاهم الملكالى العمل يستخفون به وهم على ما يظهر لا يرون داعياً لبذل قواهم في إنجازه ولا يستطيعون سبب لغيرة "عمران" وجده.

وكانوا يقولون له: لا نستطيع جميعنا الشغل مثلك، وانه لمن الجهل ان تحاول ذلك. لاننا إذ ذاك نضني انفسنا ولا نعود قادرين على العمل. ونحن حقاً نظن انك كثيراً ما تجهد نفسك في السعي علي غير طائل.
فيجيبهم: ان الناس حولنا يموتون وانما نحن هنا لنعمل.

فيقولون له: ذلك صحيح لكنه لا يتطلب كل نكران الذات هذا كما تزعم. وانك بالشغل فوق طاقتك تجعلنا نخجل من أنفسنا عدا عن انك تخسر صحتك.

وكان عمران يميز صوت الأعداء في حديثهم. فلا يستمع لهم بل ينصرف الى العمل محارباً ومصلحاً ومذيعاً بشارة الملك بين سكان مدينة اليأس. وكثيراً ما ناله فرح عظيم في إخراج الكثيرين منهم الى أشعة الشمس.
وفيما كان يعمل كان وجهه يزداد ضياء بنور المدينة الباهر. ولاحظ ذلك الذين اشتغل بينهم فقالوا: لا شك في انه ينمو في المحبة والرأفة الى شبه ملكه الذي يتكلم عنه على الدوام.

ورأي ذلك أيضاً رفاقه في العمل فكانوا يقولون: ما أجمل طبعه فانه يعمل بغيره شديدة جداً حتى يجعلنا نخجل من أنفسنا ومع ذلك فهو لا يتكلم قط عن نفسه كأنه أقلنا حماساً وأمانة. وما رأينا أكثر منه اتضاعاً.

وقال ذلك الشقي الذي كان أول من قابل عمران عند دخول المدينة: كان في إمكان هذا الانسان ان ينقذني من شقائي لو انني اجتمعت به منذ عشرين عاماً. فان سلوكه يجعلني أميل الى تصديق تعاليمه.

أما عمران فكان يعمل غير منتبه الى ما حوله. وما لفت نظره حينئذ هو انه كان أحياناً يلوح نهرأ على بعد شاسع جداً. وذلك أربه لأول وهلة. لكن عندما رأي انه آخذ بالاقتراب اليه يوماً فيوماً جعل يفكر في الأمر باهتمام: فهل دنا الوقت ليقطع النهر هو أيضاً؟

وكان حينئذ يشعر "بحضرة" ترافقه، وكان اتصاله بتلك "الحضرة" يبث فيه فرحاً وسلاماً. ودنا الاعداء أيضاً من الجندي الباسل عند رؤيتهم إياه مقترباً الى النهر كي يحاولوا الفتك به للمره الأخيرة:—

فذكره الشك ببعض عبارات كان سمعها في المرج ضد الدليل، ولكن لما رآه سل سيفه ويستغيث بملكه للتخلص منه حاول إغواءه بطريقة أخرى. فجعل يعيد اليه ذكرى بعض الخطايا التي ارتكبها وهو لا يزال في المدينة المظلمة والتي غُفرت له منذ سنين عديدة وقال له: كيف تستطيع ان ترجو الرحمة وقد عملت أموراً تخجل بها الآن كل الخجل.

أما عمران وقد أصبح قادراً على التمييز بين الأصوات الآتية من المدينة المنيرة وصوت العدو، فكان يشدّ درعه على صدره وي طرح نفسه تحت ظلّ الصليب الذي رافقه فيتغلب على العدو الذي كان يحاول إغواءه على "الشك" في غفران خطاياهم وفي محبة الملك.

ولم يعد يفكر كثيراً في النهر الذي يدنو اليه بل حوّل نظره الى المدينة التي وراءه، وكان يردد الكلمات الآتية: "لا أخاف شراً لأنك أنت معي" وكان أحياناً يخيل له انه سامع تراتيل الظفر التي ترتل فيها كرامة الملك. وكثيراً ما كان يحلم في منامه بشوارعها الذهبية وأبوابها اللؤلؤية وفوق هذه جميعاً بالملك الذي كان ينيرها.

وكان سائراً رفاق عمران السائحين وبينهم "ادو" "شسلو" يطوفون حينئذ هم ايضاً في شوارع مدينة اليأس يرثمون ترانيم الملك. فكان عند اجتماعه بهم يضم صوته الى أصواتهم مبتسماً. لكن عند انفراده عنهم كان يردد في الغالب هذه الكلمات المشيره الى حاجته، والى استطاعة الملك سدّ تلك الحاجة:

فـادى لا شافع لي
في الأرض والسما
سوى ميسيس حاجتي
وحبك الاسمى
ولاحظ رفاقه ان العدو "سرعة الغضب" كفّ عن لطمه على شفتيه،
وانه لم يعد كعادته يدين الآخرين بقساوة ويتكلم عن الناس سوءاً بل كان كسيده محباً صبوراً ممتلئاً عطفاً عليهم. على انه لو كانت عيونهم مفتوحة لتمكنوا من رؤية جماعات الأرواح الشريرة التي كانت ترقب فرصة للايقاع به. لكن لم يقفوا على الاقتراب منه لاتحاده الدائم مع ملكه الذي أحاطه بقوته كسور منيع وظلله بظل الصليب.

وتذكر عمران سؤاله للنذير بعد عبور "هيمن" النهر: "هل دائماً تضايق العدو جنود الملك عند النهاية؟". وكان إذا رأى "الخوف" يحاول التغلب عليه يلتفت الى ملكه مستغيثاً فينسحب ذاك عنه مكتفياً بالنظر اليه. وكذلك أيضاً سائر الاعداء الذين كانوا يراقبونه. فان هؤلاء عند رؤيتهم انه

كلما اقترب الى النهر كانت تبدو في وجهه هيئة السلام ويزداد اشراقه، يئسوا
من أمره واكتفوا بالنظر اليه من بعيد.

وفيما كان ذات يوم يساعد أحد رفاقه السائحين ويعزيه سمع صوتاً
يدعوه. فأشرق محياه بنور المدينة المنيرة وخاض المياه الباردة بلا خوف لي طرح
نفسه عند قدمي ملكه. بينما كانت شفتاه تتحركان بذكر اسمه.

وإذ شاهد "شسلو" و"أدو" عبوره رفعا صوتيهما بترانيم الظفر:

جهداً قديسي العلي
لذا عن السيف غنى
والنصر قد تمّما
والترس من تمّما

وبهما بلقون عند
إذا انقضى جهادهم
قَدَمي يسوع
والْحُزْنُ والدموع

طوبى لقديسي العلي
راحتهم عند يسو
مباركي الرَّحْموم
ع أبداً تدوم

وسمعهما السائحون على الاكمة فوقهما فرددوا أيضاً ورائهم:

جهد قديسي العلي
لذا عن السيف غنى
والنصر قد تمّما
والترس من تمّما

وسقط بعضهم على ركبهم وبكوا لانهم أحبوه كثيراً.

ولما رأهم "أدو" انصرفت عنهم وعيناها مغروقتان بالدموع لانه كان
كأخ. لكن لم يمض سوى القليل من الزمن حتى أضاء نور المدينة وجهها فقالت
متشدة متشجعة: الى مجيئه، ذلك الى حين فقط "الى أن يجيء"

ورد "شسلو" أيضاً كلماتها "الى أن يجيء"
ثم رجع كلاهما الى مدينة اليأس كي يعملوا وينتظرا
"الى ان يجيء"

..

.